

THE BOOK WAS DRENCHED

TIGHT BINDING BOOK

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190185

UNIVERSAL
LIBRARY

OUP-730-28-01-11111

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No.

٤
٩٢١

Accession No. ٨٠

Author

فرید ابو حنیفہ
الحاجیل

Title

الحاجیل -
سید / بیع

This book should be returned on or before the date last marked below

بجته التأليف والترجمة والنشر

محمد فريد أبو حديد

المُحْضِلُ سِتْدَرْبِيعَة

مطبعة المؤلف والترجمة والنشر

١٩٤٤

كان اليوم من تلك الأيام المطيرة القليلة التي يجود بها شتاء
 'لصحراء . وقد أسفر وجه السماء بعد أن جلل المطر أعواد الخزامى
 والشيخ ، وصفا الحو ورق السيم البارد ، وسطعت أشعة الشمس
 رفيقة دفيئة تغمر الرمال الصفراء الندية ، وتلمع تحتها الحداول
 الدقيقة المنعرجة .

وكان وائل التغلبي — وائل بن ربيعة فارس تغلب وسيدها —
 سير في جانب الوادي العشب الذي صُرت فيه خيامه ، ويجول
 مصره في التلال الحرداء المحيطة به ، لس عليها إلا أعواد من
 الطرفاء الكالحة ، وأشواك العوسج ، تبسم فيه الزهرات الزرقاء ،
 متوارية كأنها تحجل من ثوبها المقدد . وكان في سيره يتجه إلى
 حدول يترقق مأؤه من تلعة شجراء عالية ، ويساب متلألئاً إلى
 طن الوادي ، حتى يغيب في روضة ملتفة الشجر ، يتماوج حولها
 العشب الأخضر البارض مع ريح الشمال ، وتراقص أعوادها في
 رفق ، وتتلامس كلما هت عليها نفحة من السيم الفاتر .

وتبسم البدوي للمنظر الفاتن . ولكن ابتسامته كانت حافطة
 لم تنهزج لها العبسة العميقة التي كانت تعقد جيئنه الواسع . وتبسم
 نفساً عميقاً ملأ به صدره من الهواء الصافي ، ومضى في سبيله نحو

الروضة بحطى قصيرة ثالثة . سار كأن في قلبه ثقلا يوء به ، وكأن
في صدره اضطراباً يصرفه عن أن يهتز لجمال ذلك اليوم الوديع .
وسار في أثره عبد أسود ، يترقب حركته في خشوع ، ويطير
إليه بطرف عينييه في حذر ، ويتلفت نحوه كلما بدرت منه لفنة ،
كأنه يخشى أن تفوته إشارة من مولاه ، أو تشرذ عن سمعه همسة .
من همساته . وسار من ورائه كلب يتمسح بأذياله ، وفد وصع ديله
بين خديه ، وأطرق برأسه بشم الأرض حياءً ، ثم يرفع عينييه لحطة
نحو سيده متردداً ويعود إلى إطراقه يشم الأرض في مواطئ قدميه .
ولما اقترب السيد من الروضة ، وقف هيمية ثم قال ولم ينظر
إلى ورائه : « يا غصين ! » ، فأسرع العمد إليه حتى وقف على
خطوة منه وقال : « لبيك ! » .

فقال وائل : « جهر لى طعاما وشرابا ، واتعنى إلى هناك ! »
— وأشار بيديه نحو قلب الروضة — وسار بغير أن ينظر نحو العمد
خفى هذا رأسه ، ثم سار مسرعاً نحو البيوت المنتشرة في أعلى
الوادي ، حول القبة الحمراء العالية ، المشرفة على الحى .
كان وائل يبدو لمن نظر إليه شاباً يتألق على وجهه الأسمر رونق
الشباب ، وهو يسير مرفوع الرأس . كأن قوامه النحيل عود
رمح سمهرى ، وينظر بعينين لامعتين تبصان ببريق فيه قسوة ،
وقد انعقد ما بينهما في عسة . كأن جيئنه الواسع لم ينفرج يوماً عن

سمة ، وكان أنفه الدقيق الأقنى ينتهى إلى فم رقيق الشفتين ،
وشارب أسود الشعر مفتول الطرفين ، تشذمه شعيرات قاعمة في
وسطه قد تمارجت فيها حيوط بيضاء ، وأخرى سوداء ، وكانت
لحيته الخفيفة تدور حول وجهه ، لا ترى العين أثراً من الشب في
شعرها الأسود الجمعد .

وكانت عمامته البيضاء تنهى من وراء نظرف مسل يبلع مجمع
كتفيه ، وترر من تحتها ذؤانان من شعره الأسود تلمعان بما
عليهما من دهن وعطر .

وسار وائل بخطاه البطيئة نحو الروضة الحصراء ، والكلب يسير
من خلفه ، تتمسح في أذناؤه .

ولما بلغ السيد مدخل الروضة وقف هيبه ينظر فيما حوله ،
كأنه يفحص ما على الرمال من آثار ، ثم أشار إلى الكلب نظرف
سيعه المتدلى من حمائله وصاح به : « ههنا يا عساف ؟ » ، ففهم
الكلب الإشارة وأقمى حيث أشار إليه سيده ، وعوى عواء خفيفاً
كأنه يبين أنه قد حصع للأمر .

ودخل الرجل الروضة ، فحمل يمشى في مساربها ، ينظر ما بها
من آثار ، ويميل إلى كل زهرة يراها فيتأملها ملياً ، ثم يمضى عنها
متباطئاً ، ويمد يده إلى الأغصان المتدلية عاشاً بأوراقها حيناً ،
وبازعا بعض أعوادها حيناً ، ثم أوغل في الروضة حتى بلغ مكاناً

عاليا ، قد طللت أشجار ملتفة ، فحمنه من ليل المطر ، وسقطت عليه الأوراق فكسنته فراشا وثيرا فمهدها بقوسه ، ثم ألقى القوس إلى جاب ، وألقى كسنته إلى جاب ، ونشر شملة كانت عليه ففعلها فوق الأوراق الحافة ، ومال فاصطجع عليها فوق جنبه ، متكئا رأسه فوق كفه ، وقد ثنى ذراعه ، وجعل يتأمل السماء من حلال الغصون المندلية ، ويتلقى شعاع الشمس المائل داخلا إليه من بين الجدوع والفروع .

اعتاد وائل ، كلما نزل القطر وعسل الفغار عن أغصان الروضة وسالت به حداول الوادى ، أن يذهب إليها ليمتع نفسه بلذات الحياة . وكانت مهجة الشباب تنحرك فيه عند ذلك فيلتمس نداماه ويفضى معهم يومه يطاردون متع اللهو ؛ يرى فى كل زهرة ثغراً باسماء ، وفى كل عصن رطيب قواما مائسا ، ويأنس للأحاديث ، ويطرب للغناء ، ويعود بعد اليوم القصير طروبا مملى القلب بالبشر . ولكنه لما خرج فى ذلك اليوم كان على غير عهده نفسه . خرج إلى روضته وحيداً يحس فى قلبه حزنا كامنا لا يتبين مبعثه ، وخيل إليه أن العالم يفيض حوله ببضات تطن فى أذنيه ، وأن السماء الصافية تخفى وراء أنوارها الشفافة أسراراً غامضة ، وأن الصحراء التى تمتد تحت ناظريه إلى الأفق المستدير ، ليست كما عهدتها فضاء فسيحا يسرح فيه بصره مطمئنا ؛ بل كانت تزدهم وتضطرب حتى تكاد

لا تدع له فيها حلوه ، وأن النسيم اللبلب الذى يملأ صدره منه يريد نفسه القلقة ضراما واحتلاحا .

خرج فى ذلك اليوم وحده إلى روصته التى طالما شهد محالس أسه وطربه ، وإلى طالما أمتع نفسه بلذات الحياة فى ظلالها ، وكان يطمع لو استطاع أن يحد فى حماها السادج ذلك السلام الذى أعجزه فى نوادى قومه ، أو فى فناء منزله الفسيح ، فى الوادى الأعشب . ولكنه عد ما اضطجع فى طلال الروصة وحدها أعلى صحة من المحامع المردحمة المصطرة .

لقد كانت نوادى قومه مند حين تصبى نفسه وتملؤها صجرا ، وكان فناء منزله يبعث فيها وحشة وكآبة ؛ ولكن تلك الروصة نفسها قد خيب أمينه فلم يحد فيها إلا وحشة وكآبة .

وتوارد عليه ، وهو مصطجع تح طلال الغصون المتدلية ، صور من حياته مرب فى حياهه سراعا . فتذكر حروبه ومواقفه عند أراط والكُلاب ، ثم موقعه الكرى عند حل حرارى حيث سهاوى نرسانه ليلا نحو البيران الموقدة على رؤوس الحمال ، وأحاطوا بأهل اليمن فخطموهم حتى لم تقم لهم بعد قاعة ، فانتصف منهم ربيعة وألقت بمرهم عن رقابها ، وتوأتب بعدهم مقاعد السيادة فى هضاب نجد . إنه هو الذى اجتمعت حوله الكلمة ، فقاد عرب الشمال جميعاً من ربيعة ومصر حتى انتهى بهم إلى النصر

البارع ، وطرده الساده من ملوك اليمن من تلك الروع التي رعو ،
 بها من قبله أحمالا . فما بال قنائل ربعة اليوم تتحدث في بواديها
 عن كبريائه ، وما بال بنى عمه من بكر ينخدونه ويكر عليه
 شأنهم ما سمح به نفوس آثأهم طائفة عف ذلك الانصار ؟ أينكر
 قومه سابق فضله وبيارعوه في الحق الذي بايعوه من قبل عليه ؟
 أيحسبون السيف الذي قصى به على قنائل اليمن قد صدى في عمده
 من طول ما مر عليه من السلام ؟ بل إنه لمو العقوق الذي يدفعهم
 إلى هذه الهمسات الحاققة الى تبلع أدبه ، مهما بالغ الهامسون أن
 تكون فيما بينهم سرا ، وهو الحق علا صدور منافسه ، ويحملهم
 على تناسى فضله والنجهثم له .

وتنه وائل من حواطره على صوب رفوفه بين الأعصان الى
 فوقه ، فحرك رأسه فاتراً وأحس شئ من الارتياح إلى أن يخلص ،
 ولو حيناً من شجوبه المصطره ، فرأى بين الأوراي قبره تنتقل
 بين الفروع في حذر كأنها تريد أن تهبط ، وتخشى ذلك الدحيل
 المصطجع تحتها ، فجعل ينأملها حيناً ثم رأى اضطرابها فرو لها
 وفام من مكانه مسللاً يحادر أن يعسف في حركته حتى لا يفرعها ،
 ويطر نحوها يرقب حركتها فرآها تنظر إليه في دعر واضطراب ،
 بهم أن تطير هاربة فتقمر عن عصها ، ثم يرد فتزل على عصن
 آخر وتصرصر وتنقنق في خشوع كأنها تتوسل وتدى الحنين .

وفيا هو في ذلك سمع صوب رفرة صعيقة عند قدميه .
وتلفت حوله إلى أطراف الأعصان المتدلّية ، فرأى عش القنبره
وفيه فرخان صغيران لا يغطى جسميهما إلا الرّعبُ الأخضر ، وهما
تتطلّعان نحو أمهما ويحركان حناحيهما العاريين في لهفة إلى ظلّ
حناحيها ، حقق قلبه رقّةً لهما وأسرع في حفة فرقع قوسه وكنانة
سهماه ، ثم وضع شملنه على كتفه وراجع في هدو- حتى خرج من
طل الخميّة ، فرأى القنبره تهوى مدفعة نحو فرحيها وتدرج إليهما
في العس بررف علمهما بخناحيها وهي لا تزال تنظر في قلب إلى
الحبال القائم من وراء الأعصان . فبسم انسامه حريّة ، ثم سار
عها إلى حميلة أخرى يلتمس في ظلها مصجماً . وقال وهو سائر كأنه
يحدث نفسه : « لقد تحرّمت المسكينة في حماي » .

ولكنه ما كاد يطق بهذه الكلمات حتى حقق قلبه وعادته
حواطر أخرى أشد حنقاً . أدّ تذكر ما يحدث به فومه ، إذ بلعوا
من المرأة عليه أن أطلقوا ألسنتهم فيه بما لم يكونوا من قبل يجروون
عليه . لأنهم صاروا يتحدثون عنه أنه يحمي الوحش والطير مبالغة
منه في الكبر والعنوّ . ويتحدثون عن تلك المراعى التي لا يستطيعون
أن يلتمسوا فيها صيداً من طي أو أرب أو صب لأنه قد حمى تلك
المراعى وسدها في وجوههم . ويتحدثون عن الماء الذي لا يستطيعون
أن يردوه إلا بعد أن تصدر عنه إبله ، وعن كلاً الأرض الذي

لا يقدرّون على أن يُطلقوا فيه إبلهم ، لأنه قد حمى ذلك كله وحاره
 لنفسه لا يبيح لأحد فيه شيئاً إلا بإذنه ، وبعد أن يسأل منه
 ما يرضيه . لقد تحدث قومه بهذا كله ، ووصفوه بالطغيان والكبر
 والسّطَر . وكانهم تناسوا أن ذلك كلّهُ كان من حقه عليهم إذ قد
 ارتصوه وتطوعوا به له إقراراً بفصله عليهم واعترافاً له بسلطانه فيهم .
 وفيما كان يناجى حنقه بهذه الذكريات الأليمة سمع صوب كله
 يسبح ، فوقف يبطر نحو مدخل الروضة ليرى من يكون ذلك
 الحُرّى الذى يقترّب من روضته وقال فى نفسه : لعل هذه آيةٌ
 جديدة تطلعه على ما داخل قومه منذ حين من الحرّاة عليه . لقد
 طالما جاء إلى هذه الروضة وأمر كله أن يُقعىَ عند مدخلها ، فما
 كان أحد يجروُ على أن يقترّب منها ؛ فكان ذلك الكلب إذا جلس
 عند أسفل التلعة نظر إليه اناس من عبّده وتيامنوا معه أو تياسروا
 حتى لا يستبيحوا حمى سيد ربيعة المحيف وائل بن ربيعة . بل لقد
 كانوا يجعلون اسم ذلك الكلب علماً يذكرونه فيما بينهم إذا أرادوا
 التحدث عن بطلهم الباسل الذى ملأت هيئته القلوب حتى لا يمر
 اسمه على ألسنتهم إكباراً له وتقديساً .
 أوقد نجرأت تغلب أو بكر حتى لم يبق فى نفوسها رهبةٌ
 من الكلب ؟

فاتحه نحو مدخل الروضة هابطاً على جانب الربوة مسرعاً

والغضب بعلأ قلبه ، لا ترى عيناه إلا تُحمره الدماء . وقد غزم على أنه لن يصبر بعد ذلك ، بل ليَجْمَلَنَّ سطوته طاحنة حتى يصرف قومه عن تلك الهمسات التي يهمس بها الحاسدون فيما بينهم إذا حلا بعضهم إلى بعض . لقد جاءت إليه الأنباء يسعى بها صحبه الأوفياء وآله الأقربون ؛ وهو لا يجهل ما تغلى به الصدور عليه ، وإن كانت الخشية من بطشه لا تزال تخفى النيران تحت سنار واهٍ من الرياء والبسات الرائقة . إنه لن يستطيع بعد ذلك صبراً على مثل هذا الرباء ، بل لا بد له أن يفنك وأن يسطو حتى يعلم هؤلاء أنه ما زال السيد الذى طالما انعقدت ألسنهم عن ذكر اسمه ، واكنفوا عند ذكره أن يطقوا باسم الكليب . وسوف يكشف للناس جميعاً أنه ما زال السيد الذى لا يحروُ واحد على أن يملأ منه عينيه .

ولما بلغ مدخل الروضة تلف حوله فلم يجد أحداً ، ولما رآه الكلب أقل نحوه يعوى منأماً وهو ينلوى حتى اقترب منه وجعل يسمح به ويبيضص بدبه ، ثم ذهب عنه يسبح فى حلق متجهاً إلى جانب الربوة . فسار وائل فى أثره حتى بلغ قمة الربوة فأشرف على الوادى المجاور ، فإذا به سيل بأعناق الإبل الحمراء ، ومن ورائها فارس يعرفه — هو جساس بن مرة بلا شك -

جساس أخو امرأته جليلة بنت مرة سيد بنى بكر . هو أحو تلك الزوجة الحبيبة التى اصطفاها ونعم بالحياة فى بيتها الهادئ . أحوها

حساس فارس بنى بكر الباسل الذى يسير مثل الرمح الرديى
أنف أشم . كان لا رى فى قتائل ربيعة من يلىق أن يكون
عليه سيداً .

لينه لم يكن أحاً لزوجته ، وليه لم يكن أما للشيخ الحكيم
مره بن دهل بن شبيان . فإنه لو لم يكن فى حمى تلك القرابة لعرف .
وائل كيف يكسر ذلك الألف الأشم ، وكيف يحنى تلك الهامة
المرفوعة ، وكيف يجعله يفصى تلك العين الحريئة الى يحملق بها
فى وجهه إذا كله . إنه لا يقدر على أن يمنعه من الرعى فى مراعيه ،
ولا تقدر على أن يجعل إله تنظر حتى تصدر إله هو عن الماء لأنه
ان الشيخ مره ، وأخو روجنه الحبيسة جليلة .

ولكنه شاب حقود كاره . لم يكفه أن يسوق إله الى الحمى
الدى حماه بل يراه يتعمد أن يجتاز بالروضة النى لم يجرو أحد من
قبل أن يمر بها ؛ وها هو ذا يتعمد أن يصرب كله نفوسه الغليظة .
لا ! لا ! فما كان وائل ليصر على مثل هذا إذا أراد أن تنقى له فى
قومه صولة أو كرامة .

وكان حساس لا يخفى جراته ومحمديه ؛ فإنه لبتكلم فى نوادى
نكر ، ويجرئ قومه على أن يتكلموا فيه ويسخر منه فى غيسته ،
ويشر حكاك السخرية فيهم إذا جلسوا فى سامرهم حول النيران .
وهو محرص عليه ويشر النفوس ، ويوشك أن يوقد عليه بين

الناس فنة عميا . بل لعله هو الذى بدأ هذا السخط الذى تنقل إليه أحباره من كل جاب ، ولعله هو الذى فتح عفول القوم إلى النذر مما كانوا من قبل لا يروه إلا حقاً وعدلاً . وقف وائل ينظر إلى ذلك الساب المنحدى ، وثأرب فى قلبه الحفيظة ، وعزم على أن يسه وأن يصرب ، وإلا كانت عاقبة أمره وبالاً .

وكنتم وائل عبطه ورل عن الربوه ، ولم يعد إلى روصنه الى كان قد أرمع أن يقصى فيها الدوم وحده يلتمس رهة تهدى من فله النأثر ؛ بل عاد إلى بيته بسرعة الخطى وقلبه يهور وأنفاسه يصطرب ؛ وقد تمثل أمام عيينه مناظر الصراع القتل الذى بوشك أن يقع سه وبين الفارس الحرى .

ولما بلغ مصرب حبابه المشرفة من فوق أعلى الوادى ، لم تلتفت إلى من كانوا فى فائه المسيح من عبيد وأتباع ؛ بل سار مسرعا والكلب يجرى وراءه لاهثاً ، وفى نظراته اللامعة ما يشه أن يكون رهواً كأنه أحس أن سيده العظيم قد ثار من أحل ما أصابه من ألم صربة القوس الى كادت بدق صله .

ولما بلغ حيمته دخل إليها ، وتلفت فى جوابها ، ثم نادى فى شىء من العنف « جليلة ! » . فهضب امرأته مسرعة وأقلت نحوه سسم ، ولكن نظراتها إليه كانت تم عن دهشة ؛ فقد كانت تعد له رق الخمر ، وتهى له شواء من الكبد والسنام لى ترسله إليه

مع العد الفصين في الروضة كما أمره مند حين قصير . ولم تكن
تتوقع عودته قبل أن يمضي النهار أو أكثره ؛ فقد عودها إذا ذهب
إلى الروضة أن يقيم فيها حتى تنحدر الشمس إلى الغرب ، وتطول
الظلال . وأحس قلبها أن في رجوعه إليها بعد ذلك الحين القصير
دليلاً على أمر خطير أزعمه لم يكن في حسانه . وبطرب إلى وجهه .
فأدركت أنه قد عاد إليها غاضباً ثائراً ، فقد كانت عيائه محمرتين
تقدحان شرراً ، وحيل إليها أن الشعرات القائمة في وسط شاربها
تهتز في قلق . وأرادت أن تزيل ما عنده من الشجن الثائر ، حتى
لا تدر منه بادره قاسية ؛ فإن وائلاً إذا ثار لم يملك بوادره الدموية .
كان لا يعنى أن ينقر بطن فرس عرير ، أو يطيح بسيفه رأس
بعض عبيده المساكين الأبرياء ؛ حتى إذا ما سكن عصه ، وعاد
إلى نفسه ، استولى عليه الحزن ، وكاد يذبح نفسه أسفاً . ولم يكن
أكبر ما يحملها على أن تذهب ما في نفسه أنها كانت محرص على
فرس أو تشفق على عبد مسكين ، بل كان الذي يعينها هو هذا الهم
الذي رأت عليه بوادره مند حين ؛ فقد أحسنت تغييراً عظيماً اعتراه
في تلك الأيام الأخيرة ، وكان قلبها يُعصر عسراً فاسياً كلما رآته
يقضي اليوم والليل كاسفاً متمللاً لا يكاد يدوق نوماً ولا راحة .
وتقدمت نحوه ووضع يديها على كتفيه في وداعة وقالت في
صوتها الرخيم :

— مرحباً بك ! لقد كنت أعد لك طعامك .

فنظر وائل إلى وجهها نظرة سريعة ، ثم بدب على وجهه ابتسامة ضئيلة لم تقاومها الثورة العيفة الى كانت تموج في صدره ، ثم حول نظراته عنها وأمسك بيديها برفق فأراحهما عن كتفيه ، ونزع قوسه عن كنفه فقدم بها في حلق إلى ركن من الحيمة ، ثم قدم بكبانة سهامه على الأرض في عنف حتى قعفت ، وذهب إلى طع من الجلد في صدر الحيمة فجلس عليه ، واحتبى سيفه ونظر إلى الخارج وهو ساهم صامت . فمرت جليلة معه وجلس إلى جانبه ، وجعلت تعبت يدها حيناً في شملنه ، ثم قالت بصوت خافت :

— أراك مهموماً .

فانفجر وائل ، ولم يطق حبس عيظه وقال :

— لقد طال صرى ، ولم يبق بعد في القوس منزع .

قاوم بنفسى ، وكبحت جماحها من أجلك ، من أجلك أت يا جليلة .

ولكن ها هو ذا يتمادى ولا يزيد إلا جرأة على .

فأطرقت جليلة صامتة ، ووقع في قلبها من يكون ذلك الجرى الذى يقصده زوجها . فلم يكن في قبائل بكر كلها من يجروء على سيد ريعة إلا أخوها جساس بن مرة الذى لا يعرف لنفسه سيداً .

فأطرقت حريئة وقلبها يغوص إلى أعماق صدرها وتواردت عليها الخواطر سراعاً . لقد طالما سمعت بما يقوله أخوها في نادى قومه

من التعرض لزوجها الحبيب ، ولطالما غاضبه وأنحت عليه بلومها .
ولطالما توسلت إليه وهي باكية لكي ينجب ما يوجب القطيعة
بين زوجها وقومها ؛ فإن تلك القطيعة لم تكن لتجرّ في هولها
حساساً أخاها وحده ، بل هي داهية محطمة نخط وتترع وتمرق
الشمل كله . فلو كان حساس يجي بها على نفسه لما كان ذلك يطعن
قلبها مثل تلك الطعمة ؛ فإنه في عيد مكبر لم يدع في قلبها رقة
عليه ؛ ولكنها كانت حناية عليها وعلى قومها جميعاً ، قوم أبيها
وأخوها من بكر ، وقوم روحها وابن عمها جميعاً من تغلب .

وأفاقت جليلة على صوب زوجها يهدر فائلا :

-- إن أحاك حساساً يحدث عني حديث الكاره المستهري ،
ويجرّني على هؤلاء الأحداث الذين كانوا أطفالا في أفنية آبائهم
يمرحون ويلعبون ، عند ما كانت المعارك الدامية تثور من حولنا ،
إذ نحاهد أقيال اليمن وملوكها في جبال العالية من تهامة . كنا
بنى لهم المجد لكي يصعّروا خدودهم للعرب جميعا ، فإذا بهم اليوم
قد أذهلهم البطر والجهل ، فحسبوا أنهم أصحاب ذلك المجد الذي
ينفخ أوداجهم كبراً . أما وأصاب وائل لئن لم ينته ذلك الأخرق
لألحقنّه بالعبيد ، ولأجعلنه عبرة لأصحابه الآخرين .

ورفعت جليلة يدها إلى غديرتيه ، وجعلت تقتلها بأصابعها .

ثم قالت بصوت هادئ :

— هوّن على نفسك يا ابن العم أمر جساس ! ما هو إلا منك
وما أنت إلا منه ؛ وما أنت وما يسعى به إليك الواشون ؟ قرب
واش لا يريد إلا فسادا .

فقال وائل ولا يزال حاقا :

— لا تعتذرى عنه يا جليلة ، فلقد كنت تعدليه فيما يقول .
ألم تأتى أساء ما قلت له ؟

فغضب إليه جليلة في شيء من العرع . إن الأنباء تبلغه ، وهي
تعلم صدق ما يقول . ولكنها لم تياس ، وأرادت أن تسنعين بما تعلم
أنه في قلبه من حبها . فقالت كأنها معاتبة :

— ألا يرضيك منه عمك وأبساء عمك ؟ إياك تعرف ما
يحملون لك جميعا من المودة . فهلا أكرمهم بالتغاضى عن جهل ابن
عمك الصغير ؟

فانتفض وائل حتى نزع عذاره من بين أناملها وقال في عuf :

— أتغاضى عن جهله ! ومن لى بتحمل ما يبيع ذلك من
جهل من يشار كونه ؟ هل كنت لأسيخ أن يجعلنى هؤلاء ملهاة لهم
إذا مالت الخمر برؤوسهم ويتخذون اسمى فى أسماهم العابثة هدفا
لسخريتهم وعبثهم ؟ لا وحق مناة ! ما ذلك من شأن وائل . .

ثم قام خارجا ، ولم تجد كلمات جليلة إلى قلبه سبيلا . فقامت
امرأته وراءه وهي دامعة العين وسألته بصوت متهدج :

— إلى أين يا ابن العم ؟ إليك لم تطعم شيئا منذ الصباح .
 فلم يجبها ، بل سار وهو يرفع رداءه في اضطراب وياقئ السملة
 على كنفه في عصب ، ووقفت جليلة حيناً تنظر في أعقابه والحرن
 يعصر قلبها عصراً ، حتى بعد واحتفى عن عينها ، ثم أسرع
 فألقت عليها إزارها وحرحت مسرعة نحو منازل أبيها .
 ولما صار وائل في الغناء الواسع بين حيامه دعا عمده خاء
 الغصين نحوه مسرعاً . فصاح به في غصب :

— الرباب !

فأسرع العد إلى جاب من الوادى ، وسار وائل في خطوات
 واسعة لا يلوى على شيء وكلبه يتبعه ويشم آثاره ؛ فلما بلغ آخر
 ثنية الوادى وقف ينظر العد حتى أقبل يجرى وفي يمينه لحام فرس ،
 ورفع يده إلى رأسها فمسح عليه ووثب على ظهرها وهمر جادياً
 فوثبت به لا تكاد تلمس سطح الرمال . وكانت كميناً غمراً محجلة
 لا يرى الرأى منها إذا انطلقت إلا ساقين مثل ساقى النعامة تدمها
 من أمام وإيطلين كأنهما لظبي تسبح بهما من خلف ، وكأنها بينهما
 طائر يخترق الهواء .

وكان وائل بن ربيعة يهمر فرسه في عنف على غير عادته فإنها
 ما كانت تحتاج في ركوبها إلى من يحثها . ولكن الشجون التي
 كانت تجيش في صدر الرجل كانت تلمس منفذاً في عنف الحركة

فلم يُطو في ركوبه هدوءاً ، ولما خرج من الوادى عرّج متياسراً
إلى براح من أرض صلوة قد عطى المدر سطحها ، فكانت الفرس
في عدوها تثير حولها ثارا من الحصى المتطار ، وكأنها أحسب ما
في قلب راكبها من الثورة ، فأحسبها بوساس لا سالى بها أين تقع
حواقرها . وما كآب إلا هنيهة حتى بلغ وائل هصة عالية فهدأ
من سرعته ورك فرسه تعلو جانبها على رسلها ، ولسكها وننت على
الحاب الصخرى الوعر كما يب الوعل الأعصم ، حتى علت طهرها
الفسيح . وكان العتب الأحصر يغطى سطحها النموج ، ولا تزال
قطرات الماء من أثر الأمطار تلعب بح ضوء الشمس في تنايا
الأعواد ، وفي نفور أرهار الأفاحي والعرار ؛ فلأ وائل صدره من
الهواء وأرحى الحبل للفرس ومسح عرقها بكفه فاطمأ في سبرها
ومصب بين البلاع والوهاد ؛ تعلو وتهبط في هواده كأنها تتحرك
عما يحسه من إرادته سيدها . وقلب وائل بطره في أرجاء الأفق
الواضح ، وكآب السماء الرقاء صافية بعد أن محلب أمطارها كأنها
قد غسلت من أدرانها . ودب السلام رويدا إلى قلبه ، واهرحت
عقده جسده ولاحب على وجهه بسمة الارتياح . ولما عادب إليه
صوره ما حدث في الصباح لم تعد إليه عصيته ؛ كأن المنظر الوديع قد
هددها وقطع حممها . وعادب إليه صورته حساس بن مره أحي

زوجه الحسنة فساءل نفسه : أما أن لحساس أن يدع تلك الوسواس
التي نوغز صدره ؟ ولكنه لم يحس في نفسه تلك الكراهة الى
ملأته غبظاً في الصباح لذلك الشاب الفارس الحرى ، بل لقد
كان في فراره قلبه سمثل سألته فبعجب به وينمى مودبه . إن
مثل حساس من بحمى الظهر عند اللقاء ، ويسقى النفس من دماء
الأعداء ، وإن مثله من بركن إلهم الملوك في رد عندهم ، والد
عن حياضهم . وهو أحو حبللة العريزه ، وما كان أولى به أن
يكون إليه حبباً ومه قريباً ! فإذا كان قلب حساس قد امنلاً
عيره مه وحفداً عليه ، حى أطلق فيه لسانه ؛ فإن عطه قد
يسلّ وغيرنه قد تهدأ . إنه لا يحاول إذا لقبه أن يحفى عليه
ثوره . ولكن ذلك أحف كبداً وأسلم عاقبة من أولئك الدس
لفونه بالسحاب ، فإذا تولوا عنه سلقوه بألسة حداد . لقد عى عند
ذلك لو عاد حساس إليه صديقا يؤسه بمودنه وبسدملكه بسجاعنه .
وما زالت هذه الحواطر حتى أراحت عن كاهله نفعه فتنفس
نفساً عميقاً ، وشعر بالأشجان التي تصطرم فيه تصاعد معها ، ود
إليه دبيب من السلام . وسار على رسله قلب طرفه في الأفق
الصافي وفي جواب الربى الخصرء .

وفما هو في ذلك لمعت أمام عينه لمعة على مرمى سهمين ، ورأى
بياضاً ببرق ثم يساب فإذا هو بطون الظباء وهى تتب في خفة من

حملة فوق طريقه لتقصده إلى أخرى آمنة إلى جانب من الحصبة ،
صرح صراحة وهمر فرسه وحرك اللجام إلى قصدها فابطلق
لهرس تعدو نحوها ووب عساف يهدر من حلقه حتى سيفها .
ما كادب الطماء تحس المطاردة حتى حارب تهم على الحصبة
مسيحة نعلو ومهبط من ناشر من سطحها ومطامن ، والحواف
ندف بها دفعا . وقد مدد رؤوسها حتى بلغ فرونها الطويلة جانب
لهرها . وعدا الكلب والحواد في آثارها ، وطالب المطاردة في
مامن وباسر حتى بدا شيء من الردد على الطماء . فمعرف
ناول أن تحدلها عاصما ، ولكن الحصبة المسحة لم تكن بها صحر
وقبل في حاسه ، فابطلت تعدو في فرع حتى أدرك الكلب عساف
وحا منها كان أنقل الررب وما ؛ فجعل يهر في وجههما وسوانب
ن حولهما وهما يحاوران ويحاولان الخلاص منه حتى أدركه
برس وأصبح على مرمى السهم من الطيبين . فخذ وائل قوسه
مدد الرمية إلى أقربهما إليه ، وهو يجادر أن يصب كلنه الداسل
مبته ، فإذا بالكسبحر وقد أصاب السهم مفصل كنفه ، ثم
دد رمية أخرى فإذا بالنعجة تحرك على خطوات منه وقد وقع
صل ما بين عينيها . وهمر وائل فرسه همزة فونب به حتى
ابعد الرميّتين وهما تفحصان الأرض بأظلافهما الدقاق .
ل الفارس عن جواده في حفة وجرد سيفه فدوف على الطيبين

ومال عليهما نفحص أعضاءهما في إعجاب .
ثم رفعهما إلى طهر جواده فربطهما في سرحه عن يمين وشمال ،
ثم مسح على رأس كلنه وصاح به :
— عشاء طيب با عساف !

فمصبص الكل بذسه ويطر إليه كأنه يصاحكه ، ثم وبت
الفارس فوق طهر جواده فاستوى عليه ومسح بيده على رأسه
وعرفه وأرخی لحامه وأحد يتغنى بمعص سعرة .

وقضى وائل في عودته ساعات سير على هِسْنَة وهو نقل بطره
في العشاء ، وقد هرب به شتوه أسننه كل شجونه الثائرة ، حتى مال
الشمس محدده إلى الأفق الغربي ولمع تحتها الأرهاق تنال من
بياض في صفده ، وحمرة في ررقه ، حتى بلع حاب الهصة مما يلي
روصه ، فدا له أن يُعَرِّج عليها ليذهب إلى الخجلة التي آوى إليها
في الصباح لنظر إلى أفراح القبرة التي أجارها في حماه قبل أن يعود
إلى داره . ورأى في طريقه إلى الروصة إبلَ حساس صادرة عن
الماء ، ورأى حساساً في عُذُوفِ الوادي على فرسه يسير في أعقابها .
وكان في يده رمح قد ركزه في ركابه ، فنظر نحوه نظره قصيره
فراه ينظر نحوه ، وحيل إليه وهو على تلك المسافة المعيدة أن
بطرته لم تخل من تحدّيه . فصرف وجهه عنه ولم يرد أن يفكر في
أمره حتى لا يعكر الصفاء الذي شمله من جولة اليوم .

ودخل الروضة حتى بلغ موضع الخجلة فنزل عن جواده وسار
في حفة حتى رفع أطراف الغصون المتدلية .

وكان يغنى بصوت خاف وهو يحكى ليلتمس موضع الأفراح :
فسره يدعو بالقبـر هاتفة بين رياض الحجر
لا ترهـى حوفا ولا تنقـرى فأب حارى من صروف الحدر
إلى بلوع يومك المقدر

وما كاد يدير بصره بين الفروع حتى هالة ما رأى : كان
الغنس هناك مخطوماً في أذيال الغصون المتدلية ، وكانت الأفراح فيه
مدكوكة حتى سويت بالأرض واحتللت دماؤها القليلة بأعواد
القش والأوراق المساقطة من الشجر .

إذن لفد دخل الروضة دحبل تعمد أن يسبيح حماء ويَطأ
القمره المسكينة التي آو- إليه .

فاعندل وتطلع فما حوله وعاد إليه الغضب أشدّ مما كان . ولم
يشكّ في أن ذلك الحرىء الذى اعندى عليه لم يكن سوى حساس ،
فهو وحده الذى ستنطيع أن يحرؤ على إيماءه مثل هذه ليظهر بها
ما في نفسه من استخفاف . فهو الذى آذى كله في الصباح ، وما
كان أحرأه أن يكون هو الذى حطم غش هذه القنره المسكينة
وحطم أفرأها الزعب تحت عينيها .

ولما رفع بصره إلى أعلى الخجلة رأى في الغصون القصية مواضع

قصم و ررع ، فألقى بطره على الأرض فإذا آثار إبل ورأى إلى حاب
موضع العس رشمَ حف على الرمال ، فراد بفيه أن حساساً إنما
هو الذى اسداح حماد فذهب لركب وهو مملى من الغيظ ، وقد
عزم على أن يفصل فيما بينه وبين القى الحرى ؛ إذ صار الأمر
بنهما إلى ما لا استطاع معه احتمال ولما هم بالسر لاحت له من
خلال أشجار الروضة ناقة تطف الأوراق الحصراء من أعلى
الغصون ، وسر مساطئة بين السجر سرع من عصوبها لفمها ،
فنأملها فإذا هي ناقة بمصاء صئلة البدن هرله حداء الطهر لس لها
سام . ولم تكن هذه من إبل حساس . فقد كابت إبله حمراء عالية
بهر أسامها من حصونه المرعى وعدونة المورد . فوقف ننأملها
حتى راب من الروضة وذهب امخلط بإبل حساس .

فأسرع وائل في أثرها حتى أدركها ؛ ثم وضع يده على مخص
سيفه لمعقرها . فما كان لأحد أن يرسل ناقة حتى يطأ أرض
الروضة ، وما كان وائل ليرك صاحبها من بعد بغير عفا .
ولكنه سمع صوتاً من ورائه سادى في فطاطة :

— « عمهل ما كليب لا تفعل ! » .

فرفع وائل يده عن سبعة ويطر فرأى من ورائه حساسا يطر
إليه في عصب و برق في وجهه بما اعتاد من نظراب التحدى .
فقال له معذرا : أهذه الناقة لك ؟

فقال حساس : « أحل ! هي ناقتي » .
قال كليب : « لست ناقتك . فإني لم أرها من قبل » .
قال حساس : « هي ناقة صيف نزل عندي وهي في جوارى » .
فقال كليب وقد عاد إلى القيص على سيفه : « لقد وطئت حماي » .
فقال حساس منحدياً : « وناقة صبي في حماي » .
وصاح به كليب : « أحمي على ما حساس ؟ » .
فقال حساس : « إنها ناقة صبي » .
فكظم كليب عبطه . وقال مساهلاً : « لقد هممت أن
أقتلها . ولكن احذر أن تعود تلك الناقة إلى الرعي في مرعى » .
فقال حساس وقد صحك ساعراً : « مرعاك ! كأنا لا يحى
لنا أن رعى إلبنا في هذه الأرض ! إنما هي أرض تكرر كما هي
أرض بغلب ولم يورثها لك أبوك ربعة » .
فتألم كليب لذلك القول الذي لم ينعود سماع مثله وعلا الدم
في وجهه ، ولكنه تمهل في الحواب ثم قال : « أنصحك
أن سعل هذه الناقة عن إلبك » .
فأجاب حساس متحدياً : « لن أبعدها ، وسرعى مع إلبى
وحي مناه » .
فتقدم كليب نحو الشاب وقال مهدداً : « أيها الفنى ! وحق آلهة
وائل لأن عادت هذه الناقة إلى الرعى هنا لأضعن سهمي في ضرعها » .

وصحك حساس مرة أخرى ساحراً وقال : « لئن وصعت
سهمك في صرعها لبيكون لي شأن » . وصمت قليلاً ثم قال من بين
أسنانه : « لئن وصعت سهمك في صرعها لأضعن رمحي في لسنك » .
ثم همر فرسه ومضى وهو يطعن الأرض برمح وعباء
تقدحان شررا .

فاتقص كليب كأنما لدعته نارٌ وقال وهو يطر في أبره : « آيها
الفتى الوقح ! ويل لك ! » .

فوقف حساس والنف نحوه رافعاً رأسه وقال : « سرى
لمن الويل يا كلب » .

فقال كليب وهو يكاد ينفجر من الغيظ : « وحو مساء
لأ كحن من سهمك أهذا تحاطب سيد ربيعة ؟ » .

فوقف حساس أمامه وجهاً لوحه وقال ساحراً : « ما قلب
سهماً ولكن الحق يصرك . نحن الذين سودناك . لم تسدنا
عبيدك بل سدب لأننا عرزناك . حارنا معك حتى انتصرت
ننا . أريد أن تجعلنا عبيداً لك ؟ » .

فحشى كليب أن يخرج الهى في قوله إلى أكثر من ذلك
فاكتفى بأن قال : « سأعرف كيف أؤدبك » .

ثم مضى عنه مسرعاً حتى بلغ مضارب حيامه .

وكأب حليلة واقفة عند باب الباب ، فلما وقعت عندها عليه
عرفت في وجهه الغضب ، فارتاع وأضطرب فؤادها ، وسارت
مسرعة نحوه ووجهها ينم عما يثور في نفسها من المحاوف .

ولم يأخذها بين ذراعيه كعادته إذا أقبل . ولم تهتم هي بالاندفاع
إليه كعادتها عندما تراه راحعاً ، بل وقفت على خطوه مسه ،
وحملت تفرك يديها لتريل عنهما أثراً من الدهن فهما ، ثم قالت
وهي تحاول إخفاء ما بها :

« أرى صدا كريماً يا ابن عم » .

فقال وهو يعلق سيفه في عمود الحيمه في وحوم : « شرٌّ
مستطيرٌ وحق مباء ! » .

فقلت وهي تمنع نفسها من إظهار الجرع : « هل عصب لأمر ؟ » .
فقال متجهماً وقد نظر إليها : « أترين يا حليلة أحداً من
العرب يمنع مني جاره ؟ » .

فقلت : « ومن يجرو على ذلك إلا أن تكون عمك مُرّة .
هل حدث بينكما أمر ؟ » .

فقال كليب : « لم أر أباك اليوم » .

فقلت حليلة في شيء من الارتياح : « إذن هو جساس
مرة أخرى » .

فقال كليب بحقد : « وشتمني » .

فقال جليلة وقد أقبلت عليه وطوقته بدراعيها : « دع حساسا
يا ابن عمي . إنه في أحرى ! » .

فقال كليب ، وهو نخلص من دراعها : « أحرى ؟ أعلیّ
أنا نكون حرقه ! » .

فعاد جليلة إلى التعلی به وقال : « أتوسل إليك يا ابن عمي .
أمها الحب . أتوسل إليك ألا تقطع رحمك » .

فقال كليب : « هو الذي تقطع الرحم ، أرسين أن مهان
كليب يا جليلة ؟ » .

فقال جليلة وقد أخذ وجهه بين يديها : « أعف عنه من
أحلى ، أعف عنه يا كليب ! هو أحي وأكرمي بالتجاوز عن
خطئه . عِدْني نحو مناه . أتفعل ! » .

فسك كليب ولم يح ، بل حاول أن نخلص من يدها .
ولكنها تعلف به ، واستمررت نوسل ورحو .

ونظر إليها كليب فرأى دمة سحدر على حديها وهي منجهة
إليه يعينها المغرورقتين . فردد لحظة ثم صمها بين دراعيه صوة
وقال لها : « لقد طالما عموه عنه يا حليله من أحلك » .

ثم قلبها بين عينيها ، ومضى يحدتها فأوصى إليها عما كان
من حساس .

كأب الشمس قد مالت للغروب ، وصغف الأفق الغربى بلون
القرمر ، ولم يبق من شعاعها إلا فلولٌ دهسة تنعثر في أذيال
سحابه بمضاء تسر قرب الأفق متباطئة ، وكان يسمى المساء المقل
مهب بارداً من صوب الشمال ، تحمل معه طلائع برد ليل الشتاء في
صحراء النمامه من بلاد نجد .

وحلس مُمرّه ، تسبح بكر ، وحوله سبوح العشائر يحددون
عن أحداث البوم ، وعن عرمات الغد ، والعسد يجمعون الأخطاب
من بطون الوديان ويكدسونها أكاداسا في وسط حلقة الجلوس
لبوقدوا منها البران .

وأقل حسّاس بن مُمرّه سِير مساطئا ، حتى اقترب من
أبيه الشبح ، ثم وقف وراءه وهو صليمت ، وقد استند على رمح
المرکور في الرمل الناعم اللامع .

فنظر إليه الجلوس في صمت ؛ إلا أنه مُمرّه ، فقد أطرق ولم
يلتفت إليه ، وعلت وجهه سحابة حبيبة من كآبة ، كأنه لم
سرح إلى مقدم ابنه الشاب في ذلك الوقف .

وكان حساس مقطّب الجبين ، تلمع عيناه لمعة الغضب ، وكان

شعره الطويل الأسود مصفوراً في عدائر ملبوه ، هتتر مع التسم فوق كتفيه .

وكان طويل القامة ، دقوس العود ، لس في لمحة فصلة من شحم تدور ملامحه ، وسدا في وقفنه تلك كأنه رمح يركى على رمح ، وبذ تقاطيع وجهه حاده قويه ، تجمع حول فم مقمض تكاد شفناه لا تنفر جان .

وقطع جساس السكون بعد قليل ، فقال بصوت أجس :
« أما لهذا الهوان من آخر ؟ » .

فنظر الحلوس إلى أنه السبح ولم يتكلموا ، واسطروا ما يقوله الشيخ لانه الغاصب .

وكان الأب مخنبا في جلسنه ، جمع ركنيه في حبل دقوس مربوط من نحب إبطيه ، فلم يحلّ حصونه ، ولم يلتفت وراءه ، بل قال بصوت هادى لا تكاد سمع ، وقد راد وجهه عبوسا : « دعنا اليوم من هرائك » .

فانفجر الفى عند ذلك ، وقد أساء الغضب ما يحب لأبيه من بوفير فقال : « إني لن أصبر على ما تصبرون عليه ، هأندا قد أندرب » .

حل أبوه حبوه ، وانتفض كأنه قد أحس وحره ألمة ثم قام ودار بوجهه إلى ولده وصاح به : « ماذا تقول ؟ »

فوقف الشاب مرفوع الرأس في شيء من التحدى ، وقال
وصوبه لا يزال أحسن حافاً : « أقول لى لن أصر على الصيم .
هذا رجل بسومكم الحسف ولا تنحركون به . قد وضعتم أعناقكم
إليه لبطأها بقدمه . ولكى لن أكون معكم فى ذلك العار » .
فقال أبوه ، وقد ارادَّ وجهه : « من نعى نقولك أيها الفى
الحاهل ؟ أئعى سمد ربعة ؟ أئعى الرجل الذى حفظ فومك من
العار ، وحامهم من الذل ؟ أئعى وائل بن ربعة ؟ » .

فقال الشاب ولا يزال فى صوته رين الحقد والغصب :
« نعم أئعى وائل بن ربعة . أئعى كليب بن رسة ، ذلك الذى
محللكم عسداً ، ولا بعدكم إلا أئاعا وحدا » .
فسرب فى الجلوس صحة مكومة ، ولا سيما من شيوخ نى
تغلب ، وبحرك بعضهم يرد القيام ، عصاً مما ألح الفى من
الإهانة بكليب .

فأشار إليهم الشيخ بيده أن يصروا ، فهدأ الصبحة ،
وسكن اللغط ، ونظر القوم إلى الشح ، وقد اعتدل أمام ولده
الفاصب ، كأنه يريد أن يبطس به .
ولكنه تحول بعد لحظة قصيره وكأنما حال فى نفسه خاطر طارىء
صرفه عما كاد بهم به من عقاب اسه ، ثم نظر إلى القوم وقال لهم
وهو يحاول أن يجمع شعوره ، وبكسح العاصفة الثائرة فى صدره :

« يا إخواني وأناء عمي ! احملوا ما فله هذا القى يذهب مع الريح ، فما هو إلا من جهل شاة ، لس بدرى ما حق هذا الأمر عليه » .

سم بطر إلى ولده ، وقال وهو منجهم :
« أمها الآن المنكود . لقد صرت على أكثر من أداله .
ولكى أراك تمارد ، وأحب أن أعلمك شىء لس تعلمه ، اعلمك
ررع عما بوغر صدرك ، وبوسك أن يقطع بك وبين أسك » .
فأطرق القى وحسع فلبلا ، عند ما سمع قول أسه ، واعمدل
فى وقفه ، وقد أحس شتاً من الحجل ، لما أظهر من المحدى
لشخه . ولحظ أبوه ذلك فالأن من عاسنه ، كأه قد أمّل أن
سنلن لب أسه بالحجة والموعظة ، لأنه كان يعلم أن الرهبة لن
جمع ذلك الآن من الإقدام على عطاءم الأمور .

قال صره موحها كلامه إلى سبوخ فومه وهو ررد أن سمع
أسه نارنحا لم شهنده : « لقد علمم ما كان من سطوه فائل المن
نا ، وإدالهم إيانا ، أنام كما لا نملك لأنفسنا أمراً ، ولا نقوى
على رد اعنداء » .

فقال شيخ أبيض اللحية كان أقل الحلوس اكراثا بما بحرى
حوله : « فمما بمناء ، لقد كانت قائل الين تجتاح هامة ، لا تلقى
من رردّها » .

قال مره منجهاً إلى ابنه : « صدق أبو عامر . لقد كاب
مدحج نسومنا الحسف ، ولا تمنع لنا كلمة في مقاومة عسفها ،
حتى أنى ذلك الشهم الذى سحدث عنه هذا الحدث القبيح ،
فاحمعت عليه كلمة قومك ، من بنى شتان ، ومن بنى أيهم بكر ،
ومن بنى عمهم تعلب ، فوقف بهم يوم حرارى ، حتى قادهم إلى
النصر والعرو والمحد » .

فسرب في الجمع عند ذلك همهمة الارباب ، وعاد أبو عامر إلى
الكلام فقال :

« إلى لآذكر البار الى أوقدت فوق حرارى نهدى بها
وتمنع عندها . كان ذلك كأنه بالأمس القرب ، ولقد سنى وائل
ان ربيعة نفوسا وحق مناه من العدو المنذر » .

فعاد مره إلى الحديث فقال :

« وإنا لو أعطينا وائل أموالنا وأنفسنا ، لكان ذلك نعص
حمه علينا ، لحفظه أعراضا ، وإعلائه أمرا » .

فرد الجمع موافقين : « إن يد وائل بن ربيعة علينا لا تكافأ
عمال » .

فتحرك حساس في عيظ وانفجر بعد أن عجز عن كتمان
ما في نفسه وقال وهو يهدر :

« وحق مناه ما أراكم إلا تنطقون بما لا تطؤون عليه الجوانح .

إسكم لتعلمون أنه يمنعكم الماء حتى يُصدر عنه عييده ، ويمنعكم الرعى حتى تمتلئ بطون إبله ، ويحصى عليكم الوحش في القفلة فلا تستطيعون أن تصيدوا بها طيباً أو تخرشوا صاً . وأن صدوركم لتتمرق من الغبط ولكنكم تحمونه من خوف بطشه » .

فتقدم مره نحوه مهدداً ووضع يده على مقص سمه وصاح به :
« لا كب أيها العقوق ! » .

فأسرع إليه أبو عامر وأمسك بده عنقه ووقف حساس حيناً ينظر إلى شبحه وهو يرتعس في اضطرابه ثم حول عنه وجهه وأسرع عنه داهياً في صمب وعنائه يهدحان شرراً .
وكان الليل في أساء هذا قد أقبل وأرحى على الآفاق سدوله ، ولعب أنوار النيران على وجوه القوم وهم جلوس حولها مطرقين شفقون أن يرفعوا عنونهم نحو الشيخ في ثورته . ولم يحد مره في نفسه ارتياحاً إلى اللقاء في نادى قومه بعد أن كان من ولده ما كان ، ولم يدّر كيف يستطيع أن يداوى وقع تلك الألفاظ القاسية إلى فاه بها الفى في ثورته ، ورأى الأمور تتعقد وتنجهم .

ولم يدر ماذا ينبغي له أن يفعل ولا أين يحب عليه أن يقف . فقد فتح جساس عليه باباً من الفتنة ما كان أحب إليه أن يبقى مغلقاً . ولم يدر كذلك ماذا يحمل الغد المقبل في طياته بعد أن أقحم ذلك الشاب المنكود في غضبته ذكر بكر وتغلب . فإن تكرراً

ونقلب من صُلب أب وقد أقاما معا على حالى العُسر واليسر ؛
 فمادا يحفى لهما الغد فى طياته ؟ هذا جساس بن مره ينادى بكراً أن
 تثور ، وما كانت تغلب لترضى أن يطمع أحد فى ملكها ، وإن
 كان من جيرانهم ونسب أبيهم . فلم يجد الشيخ فى حيرته هذه إلا أن
 يذهب عن الجمع لعله يهتدى فى حلوته الى ما نصى له تلك الظلمات .
 وكان الهواء قد كُرد ولف الشيوخ عليهم العناء . فلما تركهم
 مره قاموا فى أثره الى البيوت يسدقثون وراء حدرانها الصوفية
 السمكة ، ويم كل منهم الحديث مع عشيرته فى حلوه من الرقاء .
 وأقلل مُره نحو بنه ، وكان يسير مطرقا ، يفكر فيما عساه
 يفعل مع ولده الغاصب . حقا لقد ذكره بآثر الأمير فى قومه ،
 وبين له أسباب ساداته بينهم ، ولكنه كان لا يزال يتوجس
 حيفة من طيشه وحمقه ، فقد عرف جساساً سريعاً الى الفتك ،
 مقداماً على الشر ، لا يتردد فى أن يلجأ إلى سيفه إذا ظن أن أحداً
 اعتدى على كرامته ، أو مس كبرياهه ؛ وعرفه لا ينال من يكون
 ذلك الذى يقدم على عداوته ولا يعأ بما يحجر إليه عصه .

عرف الشيخ أن ولده لن يصرف عن كليب إذا تعقد
 الأمور بينهما ، ولن يثنيه عن الانتقام لكبريائه شئ ، ولو سالت
 دماء قومه فى حرب تشب بين نبي العم من جراء فعلته .

جمل مُرّة يقلب وجوه الرأى فيما يصنع مع ابنه ، حتى يصرفه

عن النعرض لكليب . حتى لقد فكر في أن 'يبعده عن منارل فومه ، حتى لا يجمع منه وبين الرجل الذي داخله الحقد عليه .

ولم يسه من تفكيره ذلك إلا عند ما سمع صوب استه حليبه تنكلم مع أمها في الحمة من وراء الستار ، وتبين من صوتها أنها كانت تتحدث وهي مراعاة نأثره النفس . فدخل إلى منه ، وكان بنا ربيع الأركان ، قد أقيم على أعواد عالية ، وشده إلى الأرض أوباد كبيره ، عمس إليها حبال صحمة من أوبار الإبل وأصواف الغنم . فلما سمعت حليلة وقع أقدام أبها سكنت ، ثم وقف تنظر دحوه . وقد ارتسم على وجهها ما كان في قلبها من الخوف . ثم اقترب إليه فقبل مده في حشوع .

فقال مره : « م حنا بك يا حليلة . حيرا ما حنا . نه هذه اللبله ؟ »
« ثم النف ورأى حساسا إلى حاب في زكن من الحمة وأمه سطر إليه كأنها كاب محدثه في عصب .

فقلت حليلة وهي تحاول أن تهدي من روعها : « لس في إلا ما تحب بأنى » .

فقال مره : « لقد سمعتك تنكلمين مع أمك » .
وما كاد يم فوله حتى انفجرت المرأة تنكي ، ووصف يديها على عينيها تحاول كتمان صوب السماء .

فوضع مره يده على رأسها ملاطفا ثم قال : « مادا يحركك يا بيتي ؟ »

فاسنمرت فی نکاتہا ملنا ، تم قال میں شہ قاسمہا : « اُدرک حساساً نا والدی » .

فقال لها وقد نظر نحو اسه : « لا نحاق نا اسى . لمس عمد حساس إلا کلّ حر ! » .

قال ذلك امهدى من روع اسه . ولكه كان نكدت فوله سراب صوبه المردده وبطراته الغاصه إلى ولده .

فقال حليله : « أما سمعت نا أنى بما كان منه وین وائل ؟ » فسك الشبح ولم ترد أن يريد من ارباعها ، فقال : « لم يكن بينهما شىء ، نحشى » .

قال حليله : « إذا لم يعلم نا أب . إذا لم يحرك حساس » . فقال حساس بعد أن بق صامماً كل تلك المده : « لم أحبره نا حليله . ومادا أقول له وقد وحدنه مع شيوح بن شيسان ؟ أقول له إن كلساً أدلى ؟ أقول له إن كلساً كللى كما تكلم السبد العبد ؟ » .

فقال مره وهو يحاول كهان عصه : « لا نحاق نا اسى . ان نكون بينهما إلا ما تحب » .

ثم التفت إلى حساس وقال : « إذا لقد كان بينكما نزاع » . قال حساس وشفته تحتلجان : « قال لى قولاً فرددته عليه . هددنى وهددته » .

قال مُره مرتاعاً : « هددته ؟ » .

فقال حساس وقد أعلى صوته على صوب أبيه : « نعم هددته .
ألست حساساً بن مرة ؟ ألست من شيدان سادة بني نكر ؟ فهاذا
بفضلتي كليب ؟ » .

قال مُره وقد أودع كل أله في كلمته : « حساس ! » .
ونظر إليه غاصباً . فأغصى الفتى أمام نظره أبيه ، وبقي صامتاً
ففالت جليلة تخاطب أخاها :

« أي حساس ! أب أخى وهو روى . فبحق عليك لا تقطع
رحمك ، ولا تُؤدِنِي في صاحبي » .
فعاد مُره إلى ملاطفتها قائلاً : لا تخافى يا حليلة . إن حساساً
لن يعصىَ أمرى » .

ثم نظر إلى اسه وقال : « ولماذا هددك يا حساس ؟ » .
قال حساس : « قد علمت أنه قد حمى حير مراعى حبالنا .
وأمر ألا ترعاها لإبل أحد سواء » .

قال مُره : « علمت ذلك قسلك ، وقد أقررنا ذلك ورضدنا عنه
ولكن إبلنا ترى مع إبله فلا يتعرض لها » .

قال حساس : « ولكنه يريد أن يفصحى مع جارى » .
قال مُره : « ومن جارك هذا ؟ » .

قال حساس : « سعد بن شمس الحرى ، رجل نزل ضيفاً على

حالتى السَّسُوس ، وله ناقة رعى مع إبلى ، فطردها كليب وقال :
لو عادب إلى هنا لوصف سهمى فى صرعها » .

فسك مره ، ونقى ناطراً إلى ولده ينتظر أن يتم الحديث ،
فقال حساس : « فقلت له لو وصعت سهمك فى صرعها ، لكان
لى معك شأن » .

فقال مُمره وهو يكتم ما ثار فى نفسه من الغص : « سنأخذ
إبل حارك ورعاهها فى مرعى آخر » .

قال حساس معانداً : « ولكنى لا أفرط فى أمر حارى » .

قال مُمره يحاول تهدئة ولده : « وأنا كذلك لا أفرط فى حارك
يا ولدى ، سرعاهها فى مرعى آخر » .

فقال حساس غاضباً : « لا بل رعى إله مع إبلى ، والويل
لمن تعرض لها » .

ثم خرج من البيت عاصباً ، فذهب ولم يرجع إلى بيته ، ولم
يعرف أحد أين قصى ليلته .

وجعل مره يخفف من حوف انتته ، ويهدى من روعها ،
وحلس يحادثها ويصاحكها ، وهو ثقيل القلب ، يتوجَّس حيفة مما
قد يجره عليه رَق ولده ، حتى إذا ما اطمأنت جليلة إلى وعود أبيها
قامت لتعود إلى بيتها ، وخرج أبوها معها ليؤسها فى ظلمة الليل ،
حتى إذا بلغ قبة كليب العالية ، تركها عند المدخل وعاد إلى بيته .
وكان الهم يملأ قلبه ، من توقع ما يكون بين انه وبين زوج انتته .

مصّب أنام كان منازل بكرٍ وعلب في أنانها لا نطلل إلا
وحوهاً حاهمة عاسّة، وكاب الوادى حالة لا سادل فيها السبوح
الهمسات ولا توقد في وسط راحها البران؛ قد شغل الجميع هاحسن
من توقع الفرقة من أناء العم الدس عاشوا معاً في ربوع بهامة
والمامة سمن مصله بقاسمون العس سموعه في سراء وضراء،
ويعاودون المروح في رعيمهم وصدهم : نجمعهم جمعاً دكرىاب
الجهاد المشترك مع عدوهم من ملوك اليمين وفائله . فإن الصيحة الى
صاحها حساس لم تكن إلا صدى لما في قلوب فائل بكرٍ جمعاً وفي
قلوب سمانها خاصه .

كان السبوح نحسون ويألمون . ولكهم كانوا بطوون
ما نحسونه من الألم نح الصمب العمق محافه سطوه الملك الناسل
الخنار وائل بن دسعه . كانوا نحسون أن كلنا قد أطفاه الملك
وأبطره ما لبقاده فومه من النجبل والنكريم . ولكهم كانوا كلما
نار بعوسهم من طفناه بدكروا سابو الذلة الى كانوا شئون
نح أعمانها عند ما كاب فائل اليمين تتحكم في أرضهم فيؤثرون
الذلة لابن العم ويصبرون على كبرياء كليب وعسمه وطفياه
فانها لا تجرّ عنهم من الفصص مثل ما كاب تجرّ عنهم وطأه حكم

الغريب . ولكن حساسا صاح صيحه وبلقها من ورائه الشبان
 في فائل نكر ممن لم يعادوا عصاة حكم قائل اليمن ولم شهدوا
 عَسَفَ أفعالهم وحوَرَّ ملوكهم . فإنهم لم يروا كيف كات
 شيوخهم تقفل وتسجن ، ولا كيف كات أموالهم تسلب ، ولا
 كيف كات حُرُّ ما بهم تسباح . لم يشهدوا شئاً من ذلك ، وكان
 كل ما شهدوه إنما هو كبرياء كليب واستئثاره دونهم بالسوق
 والسلطان وحماة الوحش من صيدهم في قبای بهامة والمامة .
 كانوا كلما همَّوا الى طاعة نفوسهم في لده الصيد وحدوا دونهم
 الحمى موصداً إلا لمن كان كليب نؤرهم من أعوايه . أو لمن كان
 نخصهم بالغرب منه والخطوة عنده من أهله .

سمع هؤلاء الشبان صحة حساس فاهروا لها ورددوها فيما
 بينهم ، لا يبالون أن يصرموا في فائل ربعة ناراً لا تطفئها إلا
 الدماء السائلة بين نبي الأب والأم من نكر وعلب . فكان الشيوخ
 كلما سمعوا أصحابهم أسفخوا وحرَّعوا مما نخمله العد من كوارث
 تفجعهم في الولد والحمم ، وفي النفس والمال . لقد طالبوا عركوا
 الحروب وحاصوا عمارها ، وما كانوا ليجئوا إليها إذا استنطاعوا
 الى تحبها سبيلا . لقد عمهم السلام ودرَّتْ لهم الأحلاف وأمرع
 لهم المروج ، واستمررت السيوف في أعمادها ؛ إداها بهم فائل العرب
 جميعاً وتحامت عداوتهم وتركتهم يستمنعون ثمار النصر الباهر

الذى كان رمره وصاحب عَلمه كليب — وائل بن ربيعة — .
كان الشيوخ يُستفقون أن يسندلوا بذلك السلام وهذا
الرحاء حرباً تستنزف دماءهم وتحرّث عمرانهم وتصيِّع ما حازوه
من أموال ؛ ولهذا قصوا تلك الأيام التى أعقت صيحة حساس
واحمين ، كل منهم مطوِّى على نفسه يفكر فيما هو صانع بنفسه وفيما
هو محتال فيه مع نبيه وحفدته من أولئك الشبان الأعرار الذين
لا يكتُمون ما فى نفوسهم ولا يبطرون فى أعقاب الأمور .

ولكن الأمور لم تقف ؛ إذا كان شبوح ربيعة لا يرالون
يرددون . فإن قلب حساس كان يغلى من غيظه وحفده فلم يدع له
اطمئناناً فى صباح ولا مساء ؛ بل كان يدفعه ويثوره فلا يرال
يصر فى الجوع ليُسلم بكل فتاك من الشبان يحرصهم وينقل إليهم
ما لم يبلغهم من أساء عسف كليب . فصار لا يأوى الى منازل
أهله إلا الساعات القلائل فى طویل الأيام ، فإذا آوى إليها لم يرتح الى
حديث أحد ولم يرتح أحد الى حديثه إذ استبدت بخياله صورته
واحدة ، صورته كليب . وهو يرفع رأسه عليه شموخاً وينظر
إليه باسمًا ، لا يحفى عنه ازدراءه ويأمره ألا يعدو ناقة جاره الى
الحى ، كأنه السيد يأمر بعض عبیده ويستير إليهم بإصبعه فلا
سمهم إلا أن ينحوا وأن يطيعوا .

فى تلك الأيام الحامئة الساكنة كان شابان أثنان لا يعبآن

نشئء مما يفكر فيه الشيوخ ، ولا يباليان شيئاً مما يصل إلى أسماعهما من ثوره حساس . كانا صديقين شبا معاً وتقاسما حياة النعيم في أكبر بيتي ربيعة . نشأ في سلام لم يعرفا مآزق الحروب ، وفي بحبوحة من العيس لم تلجئهما ضرورة الى كسح النفس عن لذات الحياة . وكانا جميلين ناعمين تركهما الأهل للهو ، فلم تكن بهم حاجة إلى حيدّهما ، واكتفى الشيوخ بأن يتحدثوا فيهما وأن يتكهما ما بصرافهما إلى اللذات ، وعَنُفُوا عليهما في الأحاديث . ولكنهما لم يباليا من ذلك شيئاً ؛ فما كان يصرفهما أن يسمعا رأى الشيوخ فيهما إذ كان ذلك أبعث لهما على المرح والاستهتار بالمحون .

كان أحدهما عدى — المهلهل بن ربيعة — الذى كان أحوه وائل يسميه رير النساء تهكماً وسخرية ، وكان الآخر كهّام بن مرة أخو جساس .

ترك الصديقان الشبان منازل الحى الساكنة الحاممة واعتزلا في روضة من الرياض عند رأس وادٍ صخرى ضيق تنحدر جوانبه في درجاب وعرة تحرى من فوقها جداول من مياه المطر المحتمة عند رأسه ، وكانت المياه في هبوطها على الحوالب الصخرية همس في حرير رفيق يشبه وسوسة أوراق الأغصان إذا هرها السيم . وكانت السفوح مخضرة تكسوها حصل متفرقة من أعشاب بارضة وشجيرات قصيرة أحيائها الموسم الطير .

وأعدّ الصديقان ليومهما أُعدّه من حمر وفاكهة وطعام ورياحين
من رهور العرار العطره البيصاء داب الحديقة الصفراء ، وبعثا إلى
فنياب من حليعات القنائل ليؤسسهما في المنادمة على الشراب ،
كما اعتادا ذلك في محالسهما ؛ إذ كانا لا رهبان أن يحدث عههما
الناس . فما كان ذلك عههما بالحدث الجديد .

ونقيا في محلسهما إلى أن تصرم النهار وهب السيم باردا يؤذن
باسطالة الطلال . واضطرب عضون الأشجار ، وغايل سعب
المحلات حول العين . ومال الخمر بهما فاصطجعا . ومال النسوة
حولهما يبهانن بصحكاك وسسى من أثر الشراب . ولكن
رقاق الخمر كانت في وسط جمعهم بعضهما ملى وبعضها مفسوس ،
ولا يرالون علاوون منها الكؤوس كأسا بعد كأس . وهم كلما
شربوا منها زاد بهم الطمأ وطلما المرء . وفيما هم في ذلك لاح لهم
فادم من أسفل الوادى فطرب إحدى النساء إليه وقال بلسان
منلعثم : « هذا صنف كزیه . ما رأسه مره إلا كرهب البقاء » .
ثم هم من مكابها وهى تمايل فحدثها أخرى صاحكة في
حلاعة وهى تقول :

« للسقييه معا حتى يلين . فإننا لا نعرف الانهرام » .

وعلى الصحكاك من الجميع حتى سمعها القادم وهو علوفوق
حاب الوادى الصخرى متكئا على رمحہ ، فرفع نحوهم رأسه فرآه

الحالسون وصاح همّام في تنى . من المزعج .

— حساس !

فصحك المهلهل وقال : إنك ليرهه رهة لا تحمل مثلها لمرّة .

فصحك النساء . وقال إحداهن :

— وحق مناه لو جاء مرده إلى هنا لألّكنّ لحته من هذا الرّقى

حتى يعود صفراء !

فصاح همّام وهو يصحك :

حسبك أنبها الحرقاء فلسنا عن الرّقى في عنى .

فعلا تضحك الجمع ؛ وكان حساس قد بلغ موضعهم وجباهم و

هدوء ، فدعاه المهلهل إلى الخلوس وهو يصحك ، ولكنه لم يحد

إلى المرح . وحلس صامناً معس الوجه ، مضطرب الأنفاس

ومد رمحه أمامه وحمل نعب فيه بأصابعه وكفه . ونزع به

الصخر حساً أو يرسم به على الأرض خطوطاً . فقال له همّام صاحكا

— هل لك في كأس نا حساس !

فأطرق حساس وراى عنبه عمقاً وقال في صوب خاف

— قد حرمها على نفسى . وأب أولى بها .

فقال المهلهل يمارحه :

— لعل لك ثأراً فأليب لا شرب حتى يدركه .

فقال حساس في مراره :

— بل يبغى للعمد ألا يَطرِب .

فلم يَرْتَح أَحُوهُ هَمَامٌ إِلَى جَوَابِهِ وَقَالَ :

— وَمَنْ الْعَمْدُ وَيَحْكُ ؟ إِنْكَ حَسَّاسُ ابْنِ مَرَّة .

فَقَالَ حَسَّاسٌ مُسْرِعاً وَقَدْ نَظَرَ إِلَى أَحِبِّهِ حَاقِقًا : « وَهَلْ بَسَغِي

لَا بِنِ مَرَّةٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَمْدًا ؟ » .

وَلَمْ يَرْتَحِ النِّسَاءُ إِلَى هَذَا الْحَدِيثِ ، فَقَدْ كَانَ مِظَرَ حَسَّاسٍ

لَا يَدْعُ لَهْنٍ جَرَّاهُ عَلَيْهِ فَقَمِنَ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى وَتَسَلَّلَنَ وَتَرَكْنَ

الْمَجْلِسَ الْكَرِيهَ .

وَمَا سَمِعَ هَمَامٌ إِجَابَةَ أَحِيهِ حَتَّى انْتَفَضَ كَأَنَّ الْبَارِقَ قَدْ لَدَعَهُ ،

وَهُمْ أَنْ يَرُدَّ عَلَى أَخِيهِ رَدًّا قَاسِيًّا لَوْلَا أَنَّهُ رَأَى عَمْدًا يَقْبَلُ وَهُوَ

يَحْمِلُ عَلَى كَتِفِهِ شَيْئًا ضَخْمًا . فَنَظَرَ إِلَى أَحِيهِ بَطَرِهِ قَاسِيَةً ، ثُمَّ

صَرَفَ عَنْهُ وَجْهَهُ إِلَى الْعَمْدِ الْقَادِمِ ، فَإِذَا هُوَ مِنْ حِذْمِ كَلْبٍ

بِجَمَلٍ عَلَى كَتِفِهِ وَعِلا مِنْ الصَّيْدِ .

فَقَامَ الْمَهْلَهْلُ نَحْوَهُ مُسْرِعاً مُتَعَثِّرًا يَكَادُ يَنْكُفُّ ، وَمَدَّ ذِرَاعِيهِ نَحْوِ

الْعَمْدِ وَسَاعَدَهُ عَلَى إِزَالِ الْوَعِيلِ . وَصَاحَ وَهُوَ مَمْتَلًى بِالسُّرُورِ :

« هَدِيَّةٌ نَظَلَ حَسْبُ . رِيحُ كَلْبٍ وَحَقُّ أَوَالٍ ! » .

فَمَا كَادَ جَسَّاسٌ يَسْمَعُ صَيْحَةَ الْمَهْلَهْلِ حَتَّى وَثَبَ قَائِمًا ، وَرَكَزَ

رِجْلَيْهِ فِي الْأَرْضِ وَوَجْهَهُ بَيْنَ عَيْنِ الْفَيْضِ وَالْحَقْدِ . وَقَالَ يَتِمُّ مِنْ

بَيْنِ أَسْنَانِهِ مُوْجَهًا الْحَدِيثَ إِلَى أَخِيهِ :

— تتمتع بفضلات الكرام !
ثم انصرف وهو يطعن الأرض بسن رمحه حتى غاب
وراء الكثبان .

ووقف همام أحوه يطر في أعقابه حتى غاب عنه وهو يردد
عيطه حتى لا يفسد على نفسه مبة اليوم . ثم ذهب نحو صديقه
لشاركه فيما هو فيه ، فسمعه يسأل العبد :

— ومى عاد وائل من صيده ؟

فقال العبد في خضوع : حصر الساعة ومعه الصيد فسأل
عنك حتى علم بأنك خرجت مند الصباح . فأعطاني هذا وأمرني
أن أتمسك حيث تكون لتدوق من صيده .

فصاح المهلهل في حماسة :

« أعمّ مساء يا كليب ! إنك لتذكر على العبد رث الساء » .
ثم صحك وشاركه همام في ضحكه قائلا :

— كليب للصيد والحرب ، وأما المهلهل

ولم يتم همام قوله لأن المهلهل صاح ضاحكا يتم له كلمته .

— والمهلهل للمجون والشراب .

ثم علا صحكهما وأقبلا على الوَعيل يساعدان العبد في سلخه
ولإعداده للطعام .

لم يجد وائل في هذا الحو الحاحم اسراحة إلى الإقامة في منازل ،
ولم يكن في بوره نفسه يرباح إلى البرهه في روصته ، وعاف الطعام
فكان لا يصب منه إلا إذا ألح عليه حليله ، ثم لا يزال منه
إلا سيراً . وعاف الشراب ، ومحالسه الشدمان ، وحبل إليه أن
الحو الذي حوله كله تأتمر به ومحادعه . فكان لا يجد راحة إلا في
الفلوات . نصر في كندها ، ونفرق شجوه في السير الطويل
والركوب العيف ، حتى نفي لو ثارت الحرب لكي يجد في صجة
معامها ما سعد عنه تلك الوسوس التي ساورتها . وكان الصد
أحب ما يخرج إليه ؛ فكان مطارد الوحنس لا بدع فراغاً
لهواجس عصه المكتوم ، تلك الهواجس التي كانت تردحم في
صدره حتى بصيق بها كلما خلا إلى نفسه . فكان يخرج في تلك
المدة التي شمل فيها السكون مارل قومه وبنوادمهم فيقضي في الصيد
يوماً أو أياماً ، ثم يرجع حياً قصيراً فلا يلبث إلا قليلاً ، ثم يعود
إلى الفلوات يلتبس فيها التفرج عن قلبه المكروب .

قام يوماً من تلك الأيام من بومه في الصباح الباكر ، فلبس
ثيابه وأخذ قوسه وكنانة سهامه وهم بالخروج ، وكانت امرأته
جليلة بت مرة تنظر إليه وعيناها مغروقتان بالدمع ، تنسح حر كته

في سكون ووحل ، والحرن يعصر قلبها . لم بدر مى يعود السلام
إلى هذا الزوج الحب الذى قد تبدل منذ حين وضار لا يطمئ
ولا يستقر . وكأب آلامها ربد حتى لا تقوى على احتمالها كلها
نذكر أن سب كل هذا الذى أصاب زوجها من الاضطراب ،
إنما هو أحوها الذى أثار عليه النفوس وبحراً عليه في عينه وأمام
عينه . ولم تستطع هى ولا أحد من أهلها أن يسألوا من قلبه الحقد
الذى ملأه وملك عليه رمامه . فقد حدثته وبوسلت إليه وسمعت
أمها يحادله ويحاول أن تثبيته عن عداوته . وسمعت أنها وهو يعنفه
ويغلط عليه القول ، ولكن ذلك ذهب مع الريح وتبقى حساس
نفدى وساوسه وعداوته بكل ما استطاع أن يلتمسه من علل ؛
فكان يرى في كل نظرة من نظرات وائل احتقاراً ، وفي كل كلمة
من كلمات إهانة ، وفي كل فعل من أفعاله آفة حديد على كبرائه
وطغيانه ؛ ولج به الحبال حتى حلب هذه الوسوس محل العقيدة
لا يزعزع عنها ولا ينقل المحادة فيها .

فكان هذا أبعث على ريادة تألمها واشداد حيرتها . فلما رأب
زوجها خارجاً ولم يستقر في منزلها إلا بعض ليلة برح بها الحرن
ووقفت في سبيله تنظر إليه صامتة والدمع يحول في عينيها .

فنظر إليها وائل واهتر فؤاده إشفاقاً وقال لها وهو يحاول

الابتسام :

— مالى أراك مكنتة يا جليلة ؟

وكان هذه الكلمة قد حلت عقده حرثها فاسجرت تبكي ،
وألق يديها على كتفيه وطوق بهما عنقه ، وأملت رأسها إلى
صدره وهى تنشج بالبكاء .

فوضع وائل يده على رأسها ثم صمها بعطف إليه وقال لها :
« إننى لا أطيق بكاءك يا جليلة فما الذى يحرنك ؟ » .

فقلت له فى بكائها : « لو كنت تتألم لحرى لما عبت عى كل
تلك الأيام . إنك لم تأب من صيدك إلا الليلة وأراك تبكر
بالخروج » .

فقال لها وهو يحاول الانسجام لهدئتها : « أتحب أن تكوى
معى يا جليلة ؟ لقد ودد لو ركبت الخيل ورميت بالقوس فإنك
خير من أحب صحبتته » .

فقلت جليلة وفى صوتها رين اللوم : « بل يريد أن تعد عن
منزلك وتتعمد أن تغيب عنى » .

وكانها أدركت ما فى قولها من قسوة فقلت :

« بحق مناه يا وائل ابقى معى بحق أوال لا تخرج اليوم عى » .

فقال وائل يلومها : « كأنك تخشين عى إذا خرجت ؟ » .

فأسرعت قائلة وقد رفعت رأسها ونظرت فى عينيها : « بل

أخشاك . إننى لأخشى عليك فليس فى قبائل ربيعة من يتجرأ عليك » .

فزَمَّ وائل شفّتيه وصمت لحظة ، ثم قال كأنه يحدث نفسه :
« لبس في ربيعة من يتجرأ على ؟ » . ثم تدارك كلمته فضحك
وقال في لهجة استخفاف :

— لا تخشى يا جليلة . أعدك أننى لا أتعرض لجساس .
أهذا ما تعنين ؟

فنظرت جليلة إلى وجهه ورفعت كفيها إلى عارضيه فضمتها
بينهما وقالت بصوت متهدج من أثر الشجون :

— ولكنى لا آمن أن تبدر منه بادرة فلا تملك نفسك .

فقال وقد مد يده إلى رأسها يمسح بكفه على شعرها :

— لو بدرت منه بادرة لنحملتها من أجلك . أبهذا ترضين ؟

ثم ضمها إلى صدره ضمة أودعها ما في قلبه من المحبة لها .

فقال جليلة في عناد :

— وماذا عليك لو أقت اليوم ؟ إياك لم تذق راحة منذ أيام

وأولى لك لو بقيت اليوم في منزلك .

فقال وائل متردداً :

« وما الذى يملك على هذا القول يا جليلة ؟ لقد طالما

خرجت وأقت الأيام في صيدى ولم أر منك مثل هذا الحزن الذى

أراه » . وسكت حيناً ثم قال ضاحكاً :

— لقد قلت لي هذه الليلة أنك كنت عند عرافة تغليب .

وهذه تميمتها قد وضعتها بيدكِ حول عنقي . ولم أرد أن أعصيك
حتى أزيل عنك خوفك . فهل هي التي أمرتك بأن تُقعديني ؟
فحولت عينيها عنه ولم تجبه ؛ فضمها إليه باسما وقال لها :
— إذن فهي التي حذرتكِ من خروجي ، وأنت تريدني على
الاحتجاب حتى تأذن لي عرافتك .
فتبسمت جليلة ابسامة ضئيلة وأخفت وجهها في صدره
وقالت متممة .

— وماذا عليك لو أطعنتي ؟
فقال لها : أتحبين أن يتحدث الناس أني خشيت أن أخرج ؟
لقد تحدثت الأبدية بما قال جساس . أتريدن أن تتحدث
المجامع بأنني أحتجب خفي فحتى تأذن لي عرافة تغلب ؟
فقالت جليلة في عناد وهي تنظر إليه :
— ألا تطيع رجائي ؟ ألا تجيب توسلي ؟ وماذا عليك أن
تصرف عنا سخط مناة الذي بلغت أمره ؟ بحق حي لك أظنني
إذا لم تجد من حبك لي ما يحملك على البقاء ، أبق اليوم إلى جانبي .
لا يستطيع أحد أن يقول أنك خشيت الخروج . أنت فارس
العرب وسيد ربيعة كلها ، ولن يستطيع أحد أن يقول أنك تخشى .
فحول واثل عينيها عنها مرة أخرى حتى لا يرى دمعها وقال :
« إن حي لك يا جليلة لا يعدله عندي في الحياة حب . ولكنك

لا يحبين أن يتحدث الناس عنى حديث السخرية أو يظنوا بى
الخوف ، مُرينى أن أخرج حتى أكون قد أظعتك . مرينى أن
أخرج إلى صيدى وأن أخرج لسان عدوى ، وأعدك أنى لن
أعرض لجساسة ولن أمسه بسوء ولو تعرض لى .

ثم تخلص برفق من بين ذراعيها ، وأتجه نحو باب الخيمة
حارجا . ولم تجد جليلة بداً من أن تمسك عن الحديث ، ووقفت
تنظر إليه فى صمت وقلبا يخفق ، وعيناها لا تزالان تدمعان .

ولما خرج وائل إلى فناء منزله لاح له ربوع يجرى من
جانب الوادى ، فأسرع إلى قوسه فوضع فيها سهماً فرمى اليربوع
قبل أن يبلغ الجانب الآخر من الوادى فصرعه فى مكانه ، وقد
أصاب السهم رأسه . وأراد عند ذلك أن يجعل وداعه مرحاً فنظر
إلى زوجته وضحك ضحكة عالية وقال لها : « هذا عشاء عساف
يا جليلة » .

فلم تملك جليلة إلا أن تبسمت وصاحت به .

— حرسك مناة !

ووقفت تنظر إليه وهو سائر وتتأمل قامته المعتدلة ، ورأسه
المرفوع وخطاه الواسعة . وكان كلبه عساف يسير كما اعتاد فى
آثاره يتشم مواطى أقدامه .

ولما بعدَ وأوغل بين الكتبان أسرع جليلة خارجة إلى

طرف الوادى ، وسارت تهرول حتى دخلت فى شِيعب من شِيعابه
وقصدت إلى بيت العرافة لتلتئمسن لوائل عندها بركة إلهيها مناة
وأوال .

سار وائل حتى بلغ مرعى خيله ، وكالت فى واد مجاور ،
والعبيد مشتتون فى أنحائه بعضهم يتعهدون الأمهار ، وبعضهم يعلم
ما شب منها ويروضها ، فنادى كليب أحدهم وأمره أن يأتى له
بالرباب ، وكالت أحب خيله إليه . فأسرع العبد إليها حتى قادها
إليه ، فأقبلت الفرس تسير إلى سيدها كأنها صديق تسعى إلى صديقه ،
حتى إذا قرُبَت منه جعلت تحرك رأسها وهى تصهل كأنها تُبدى
سرورها بلقائه ، ورفعت ذيلها تهره ، وضربت الأرض بحوافرها
كأنها تطرَب إلى ركوبه وترغب فى الركض تحته . فمسح كليب
رأس الفرس وعنقها وهو ينسم لها ، ثم وثب على ظهرها وركبها
عُريًا ، وقد أخذ كنانة سهامه فى كتفه اليسرى ، وجعل القوس
فى يمينه . ولما استقر فى ركوبه مسح رقبة الفرس ، وقال كأنه
يخاطبها : « هيا يا رباب » .

وبكان الفرس قد فهمت خطابه فانطلقت تعدو مثل وعل برى ،
وغابت براكبها وراء ثنية الوادى ، وانطلق الكلب يجرى فى
أثرها يقفز فوق الحجارة لا يلوى على شيء .

قضى وائل ذلك اليوم فى الصيد حتى مالت الشمس نحو الغرب

ثم عاد وقد حمل زوجين من وُعول عصماء تكاد الرباب تنوء تحت ثقلها ، وقد تدلى زوج منها عن يمين وآخر عن يسار . فلما بلغ مصرعى خيوله فى الوادى المجاور لمنازله أسرع نحوه العبيد فوثب عن فرسه وقال ينادى الغصين عند ما وقعت عينه عليه .

— أين المهلهل اليوم ؟

فتردد العبد حيناً ثم قال :

— لا أظنه اليوم فى منازله .

فأدار وائل وجهه وابتم عند ما سمع جواب العبد . إذ علم أن المهلهل أخاه لا بد قد خرج إلى بعض لهوه كما اعتاد فقال للعبد :

— احمل إليه وِعِلاً من هذه أينما كان يا غصين .

ثم سار نحو الروضة وقال وهو لا يلتفت :

— قسموا سائر الصيد بينكم وامسحوا الرباب ثم قربوها

منى عند الروضة .

ومضى نحو روضته والعبيد يسارعون إلى الفرس ليزيلوا ما علق بها من أثر الدماء .

ومضى نحو روضته ليقضى بها حيناً كمادته والكلب عساف يسير فى آثاره حتى بلغ مدخلها فسار بين شجرها الملتف وأقمى الكلب عند طرف منها ينظر فيما حوله وهو يلهث .

وقضى وائل هناك ساعة يسير بين الخمائل ويتأمل زهرها

وأغصانها حتى بلغ إلى خيمة القنبرة ، فوقف عندها هنيهة ، ولما وقعت عينه على العش المحطم المهجور سرت فيه هزة من الغضب ، ولكنه صرف عينه عنه سريعاً ومضى إلى خيمة أخرى حتى لا تُسلح عليه الذكري الأليمة .

ولم يلبث أن عاد إليه الهدوء بعد أن سار حيناً فوق الرمال الناعمة التي جمّدت سطحها مرّاً الريح فبدأت تحت عيبيه مثل الغدير قد انداحت عليه خطوط متراقصة من لمس السيم . واطمأن إلى أن حماه لا يرال عزيزاً لم تسبحه اليوم قدم جريئة . ثم أتى إليه أحد العبيد والرباب تسير في أثره بغير أن يمسك لجامها تصهل وتشول بذنبها . فأقبل نحوها وائل ومر بكفه على رأسها وعنقها وهي تشمه وتهانف له ، ثم وثب عليها وسار نحو منزله .

ولما بلغ آخر وادي الروضة رأى عن بعد شخصاً يسير مسرعاً وهو يخبط الأرض برج رحمة فتأمله ، فإذا به جساس . وكان متجهاً نحو مراعي إبله في الوادي المجاور . فاعترتة لمراه قبضة لم يتمالك منها نفسه ، ولكنه أخذ يصرف نفسه عنها ، فاستعاد صورة جليلة لعلها تسأل من صدره تلك الموجدة التي كان يجاهد نفسه في مغالبتها . وفيما هو في ذلك سمع كلبه يبيح نباحاً شديداً ، فالتفت نحوه فإذا به يعدو مسرعاً نحو جساس في غضب كأنه يريد أن يهجم عليه فيعقره . فهمر فرسه لكي يدرك الكلب الغاضب

وصاح به ليثنيّه ، ولكن الكلب اندفع في شراسة حتى وثب على
جساس ، فما أدركه وائل حتى كان قد مزق طرف ثوبه وعاد إليه
يريد معاودة الكرة عليه . فوقف جساس والرمح في يده يريد أن
يقذفه على الكلب ، ولكنه عدل عن ذلك فجأة ، واتجه نحو
وائل فنظر إليه وشخص إليه ببصره حيناً لا يطرف ولا يتحرك .
وخشع الكلب عند ما أبصر سيده قريباً منه وسمع زجره . وكاد
وائل ينطق بكلمة يزيل بها غضب صهره الحاقق ، ولكنه أوقف
الكلمة على لسانه إذ سمع جساساً يقول له بصوت أجش :
« هلم إذا شئت فأنت أولى بهذا ! » . ومد رمح كانه
يريد نزّالاً .

فغلا الدم حتى ملأ رأسه ووضع يده على مقبض سيفه
وهمّ أن يسرع نحوه فيُغمدَ السيف في صدره ؛ فإبه لم يزدد عليه
إلا جرأة ، ولم يزدد غليله وحقده إلا اشتعالاً . وهذه هي كلمته تنطق
بما كان في قلبه من تحدٍّ بذىء .

ولكنه تردد بعد قليل ورفع يده ونظر إليه نظرة طويلة وهو
صامت ، ثم أدار عنه وجهه وقال في مهارة :
— لقد وعدت جليلة .

ثم همز فرسه وأسرع عائداً إلى منزله وهو لا يكاد يرى
ما أمامه من شدة غضبه المكظوم . ووقف جساس لحظة ينظر في

آثاره وهو مضطرب القلب يكاد يتمزق من الغيظ ، وقد طعنته الكلمة التي سمعها في صميم فؤاده وزادت حقه التهابا .

ولما بلغ وائل ساحة منازل هب من فيها سراعا يتلقونه فوثب عن فرسه وسار نحو خيمته ، ولما سمعت جليلة ضجة مقدمه قامت مسرعة في لهفة تريد أن تبلغ باب الخيمة قبل أن يدخل ؛ فقد كانت تريد أن تترث به قليلا قبل الدخول حتى يطاء خطوطا رسمتها بدقيق عند بابها . فلقد ذهبت في الصباح بعد أن خرج زوجها إلى عرافة تغلب واستعانت بها أن تدبر لها من سحرها وكهاتها ما يمنع الشياطين عن ولوج بيتها ، ويحفظ لها الزوج الحبيب من وثباتها . فصنعت لها العرافة دقيقا تحط به رسما عند مدخل البيت لكي يطاء وائل إذا عاد داخلا وتذّر منه في أركان البيت وتحت أوتاده وعند وسادته ، فإذا أصاب الزوج بخفه شيئا من ذلك الدقيق في دخوله أو انصرافه أمن الممالك ، وكان محروسا في خطاه .

ولكن وائلا أقبل مسرعا ، فلم تدركه حتى دخل الخيمة ، فشردت ببصرها نحو الخطوط المرسومة عند الباب لترى هل مسّها بخفه ، ولم تفتن وهي في انشغالها بذلك إلى ما كان على وجهه من علامات الغضب . ثم تنبّهت إلى أنه دخل ولم يبسم لها ولم يأخذها بين ذراعيه كما عودها . فنظرت نحوه في دهشة فرأت

وجهه مرربدا وهو يتعمد ألا ينظر إليها . فقالت له في صوت العتاب :

— عمت مساء يا بن العم .

فلانت نظرتة قليلا ، ثم قال وعليه هيئة الاعتذار :

— عمت مساء أيتها الحبيبة !

ثم عاد إليها ففتح لها ذراعيه يحاول أن يخفي عنها اضطرابه

وغضبه ، فألقت نفسها بين ذراعيه وقالت مترددة .

— لعلك قضبت يوماً هنيئاً في رياض الخُزامى .

فقال وهو يلفها بيمناه ويشم شعرها بشغف ؛

— وأين الخُزامى من عطرك ؟

ثم أرسلها وحاول أن يصرف نظره عنها . فنجست في صدره

وطوقته بذراعيها وقالت بصوت خافت فيه رنة الحزن :

— أحسّ كأنيك غاضب .

فقال يحاول صرفها عن حديث جساس :

— كيف مضيت أنت اليوم يا جلييلة ؟ هل عاودك الدوار ؟

وكانت جلييلة حاملاً يعتريها دوار الوَحَم بين حين وحين فيصيبها

بضيق شديد .

فقالت جلييلة :

— ما أبالي اليوم دواراً ، قل لي هل من شيء أغضبك ؟

ثم تشبثت به في إصرار واستمرت تقول :

— قل لى بحق عندك . هل تعرض لك جساس ؟
فلم يستطع كليب أن يكذب فى جوابه بعد أن أَلقت إليه ذلك
السؤال الصريح .

فقال : « ولكنى وعدتك يا جليلة » .

ثم سار داخلا حتى بلغ صدر البيت فجلس على فروه قد فرشت
فيه ، وذهبت جليلة إلى ناحية أخرى من الخيمة فحملت إناء مملوءاً
باللبن وأتت به فقدمته إليه وهى صامتة ، ثم جلست إلى جابه تنظر
إليه فى شىء من الوجوم ، فشرب كليب بعض اللبن ووصع الإناء
إلى جابه وقرَّب جليلة إليه وجعل يحدثها بما كان من أخيها وهى
تسمع مطرقة وقد برَّح بها الألم .

ولما انتهى من وصف ما حدث من جساس نظر إليها بابتسامة
مرة وقال : « ولكنى مع ذلك أرجو أن يعود إلى صوابه » .
ف قالت جليلة : « أب سيد ربيعة كلها ولا يضرك نَزَق شاب
مثله » .

فقال كليب : « أَرْضَيْنِ لى أن أهان ؟ » .
ف قالت بصوت ثات : « حاشاك أن تلحق بك إهانة . ومن
يظن أن حلمك عن جساس مبعثه الضعف عنه ؟ »
قال كليب : « لقد عرفتُ العرب يا جليلة ، لا يُكبرون
إلا العزيز ، ولا يُجِيلون إلا المنيع » .

فرأت جليلة صدق قوله ، وعلمت أن فعل أخيها يُصَرِّي عليه الناس ويُنزل من هيئته ، ولكنها آثرت أن تقلل من حطورة الأمر حتى لا تريد عضبه ، وعزمت على أن تسعى مرة أخرى عند أخيها وأبيها ، لكي توقف جساساً عند ذلك الحد ، حتى لا تنقطع الرحم بينه وبين زوجها ، ولا تقع الفرقة بين قوما . ثم أخذت تلاطف كليياً وتسليه ، واستطاعت بعد قليل ما تستطيعه الزوجة المحبة وحدها ، فإذا الحديث يعود إلى عذوته ، وإذا بالبطل الفتاك يرتد حبيباً رقيقاً ، يتحدث إلى زوجه الحبيبة واصفاً لها ما فعله في يومه من مطاردة الوحش ، وصيد الوعول من قُلَلِ الصخور ويطون الوديان ، وسهب في مدح فرسه الرباب وكلبه الأمين عسَّاف ، وسداد قوسه وفوذ سهمه .

فقالت جليلة باسمه : « وأين ذهب الصيد ؟ » .

فقال : « أهديت مهلهلاً أخى وعِلاً ليكون طعاماً له في شرايه ، وأغلب ظنى أنه اليوم لاهٍ مع أخيك همام ، وتركت سائر الصيد للبعيد » .

فقالت وقد التفتت إليه في دلال : « وأين إذاً نصبى » .

فضحك وضمها إليه وقال : « بصيك وائل نفسه يا أيتها الحبيبة » .

فانحنى برأسها على صدره وجعل يعبث بشعرها الأسود ، ثم

همس في أذنها يقول : « ستجدين بعد حين عنى سلوة يا جليلة » .
فقلت جليلة في شبه صيحة : « ومن ذا يُسَلِّيني عنك ؟ »
فضحك وقال : « ولدك الذي سيقبل بعد حين » .
فقلت وهي تحرك رأسها على صدره : « ما يزيدني ولدي
إلا حباً لك » .
ثم استسلما معاً لأحلام المستقبل العذبة .

أصبح الصباح فقام وائل كعادته مكرراً يريد الخروج ، وهمت
 جليلة أن تعيد عليه رجاءها أن يبقى معها في البت كما فعلت بالأمس ،
 ولكنها تذكر جوابه وترددت ؛ إذ أيقنت أنها لن تجد منه في
 يومها إلا مثل جواب أمسها . فما كان سيد ربيعة ليرضى أن يطيع
 امرأته ويبقى في بيته من حشية قالة عرافة تُخيفه من اعتداء عدوه .
 فلبس في قبائل بكرٍ أو تغلب من توقع عداوته الرعب في قلبه ،
 وما كلن ليتوارى من ذلك العدو لو وقف أمامه بسيفه مصلتا ، أو
 يرمحه مسدداً ؛ فقد عرف وائل بن ربيعة منذ صباه كيف يلتقى
 الأعداء في وجه السيوف والرماح . وما كان ليطيعها فيتحدث
 شبان القبائل أنه خشي الخروج من بيته حتى تأذن له العرافة
 بعد سكون ثورة الأخطار .

تركته جليلة يمضى بغير مراجعة ، وجعلت تكاوح نفسها فيما
 تُحسُّه من الخوف ، فقد لبس زوجها التيمة السحرية ونام على
 الوسادة التي ذرت من تحتها الدقيق الأبيض ، ولعله قد مس بخفه
 الخطوط المرسومة عند مدخل الباب وهو داخل إليه في الليل ، فإذا
 فاته ذلك في الأمس فلعله يصيب منه في خروجه ذلك اليوم ، ولن

تتخلى عنه الآلهة وقد قدمت لها القرايين عند العرافة من لبن وتمر ،
ومن لحم وسمن ، واكتفت بأن تخرج عند الباب وتحاول أن تجرّه
إلى الرسم السحري عنده حتى تُطمئن إلى أنه عائد إليها في المساء
آمناً سالماً . فلما خرج استوقفته لتودعه ، ولكنه كان قد أسرع
فلم يقف إلا بعد أن تعدى الخطوط المرسومة بال دقيق ، واضطرت
هى أن تذهب إليه لتضع رأسها بين ذراعيه الممدوتين لها . ولكنها
كانت بادية الحيرة ، ثم نظرتها عن أنها تريد أن تقول له قولاً ولا
تجرؤ عليه ، ففطن وائل إلى ذلك وعزاه إلى ما فى قلبها من القلق
عليه . وأراد أن يُذهب ذلك الاضطراب عنها ، فقال لها باسمًا وهو
يضمها : « لا تراعى يا حليمة ، فهذه هى تيممك » . ثم أمسك
بمثلث من الجلد تحت ثيابه . فتبسمت جليمة وسرّى عنها بعض
التسرية وقالت له :

— سر فى حراسة جميع الأرباب . أخرج اليوم إلى صيدك ؟

فقال لها وهو يمسح بيده على رأسها :

— لا . ليس اليوم الصيد يا جليمة ، فقد علمت أن الإبل لم

تشرب منذ خمس .

فصاحت جليمة فى فزع مكتوم :

— إذن فأنت اليوم فى الحمى .

فتبسم وائل وقال وهو يرسلها فى رفق :

— لا تُراعى يا جلييلة ، فلن أتعرض لجساس كما وعدتك .
لن أتعرض له وإن تعرض هو لى .

وسار عنها حتى أخفته كئبان الوادى عن عينيها .

قضت جلييلة ذلك الصباح وهى مكتئبة ، فلم تذهب إلى زيارة
أحد من أهلها ، وعابدها دوار الحمل فاستلقت على الفراش حتى
يرول عنها . وبقيت كذلك ساعات تفكر فى أمر زوجها وأخيها ،
ورئّت فى أذنيها أقوال جساس وهى تحدّثه فى بيت أبيها ، وتمثلت
لها صورته وهو يحملق فيها نائراً ، واحتوشتها المخاوف فكانت
تارة تتصور زوجها وقد سطا بجساس ، ثم تتصور أخاها وقد سطا
بزوجها ، ثم يعود إليها الهدوء حيناً فتطمئن إلى حماية مناه وأوال ،
ثم ترد إليها الوسوس فتعزها مرة أخرى وتضيقها .

وفيا هى كذلك إذ سمعت صراخاً يتعالى من بعيد من ناحية خيام
أخيها جساس . وكانت فى الوادى المجاور ، فذهب ظنها إلى أن
مكروها قد أصاب شقيقها . فقامت مذعورة وسيت دوارها وحل
الخوف على أخيها محل القلق على زوجها . وسارت تترنح حتى
اعتلت جانب الوادى تتوقّل فى الرمال والصخور ، ثم هبطت إلى
منازل جساس فرأت فى ساحتها جمعا فأسرعت تهرول حتى
اقتربت منه ، فرأت سعد بن شمس الجرمى ضيف خالتها
البسوس ، واقفاً يتحدّث إلى من حوله بقصته .

فسألت بعض الوقوف في لهفة : « أين جساس ؟ » .

فأشاروا لها نحوه ، وكان واقفا عند خيمة خالته في جمع مضطرب هائج قد قامت من وسطه امرأة تصيح صيحات متقطعة تعلو على اللفظ الذي حولها . فأسرعت نحو الجمع الكثيف وقد داخلها شيء من الاطمئنان منذ عرفت أن أخاها لم يخرج بعد من بيته . وشقت الصفوف حتى صارب إلى جوار المرأة فإذا بها خالتها البسوس ، وهي حاسرة رأسها قد شقت درعها وتلطم وجهها في هياج يشبه الخبل ، وهي تصيح : واذلاه ! وكان جساس واقفا إلى جوارها صامتا والغضب يتطاير من عييه . فاقرب من خالتها وحاولت أن تهدئ منها وأن تحفض من صراخها ، وقالت لها :

— ماذا أصابك يا حالة ؟

فلم تلتفت المرأة إليها بل استمرت تصيح وتكلم ، وهي بين حين وحين تصرخ صرخة مفرعة ترتف في الوادي قائلة :

« واذلاه ! » . ورأتها تختلس النظرات إلى جساس وهي تصرخ كأنها توجه لسعات تأييبها إليه ، وهي تقول :

— ليتني لم أنزل سعداً في جوارى ، بل بعثته إلى جوار عزيز لا يناله الذل عنده . ليتني لم أرى يوما هذه المنازل ، ولم تطأ قدمي هذه الساحة ، فليس فيها من يحمي جاره ولا من يدفع عنه الاعتداء . وما زالت تهتف بمثل هذه الأقوال وتنتج بنظراتها إلى جساس

وهو صامت مطرق أصفر الوجه كأنه يقطر السم من صفحة وجهه .
ولم تستطع جليلة أن تهدي من ثورتها ولا أن تسمعها لفظاً من
كلامها . فإنها كانت تهدر وتصرخ ، لا ينقطع صوتها ولا تتردد
الألفاظ على لسانها . فذهبت جليلة نحو جساس لتسأله ، ولكنه
صرف وجهه عنها ، وقال في صوت الحاقق كأنه يحدث نفسه :

— لو كانت خالتي في جوار عرير لما هانت ولما هان ضيفها .
ولو كانت في آل أبيها منقذ لحماها بنو تميم قومها ، ولكنها نزلت
في جوارى ، فهذه ناقة ضيفها ترتع والسهم في ضرعها .
وأشار بيده نحو ناقة تجرى بين الكشبان وهي تضطرب
وتصيح صياحاً عالياً وفي ضرعها سهم مرشوق يهتز بين رجلها
إذ تجرى .

ولم يُرد جساس أن يبق إلى جوار أخته فتحرك لتركها ،
فأمسكت جليلة بذراعه وقالت بحفاء :

— ماذا تقول يا جساس ؟ وما معنى كل هذا ؟
فنظر جساس نحوها في قسوة وتخلص من قبضتها وقال :
— لا أقول شيئاً سوى أنني رجل ذليل الجار . تُرعى ناقة
ضيف خالتي بالسهم في ضرعها وهي في جوارى .

فأدركت جليلة ما كان كله ، ولم ترد أن تطيل معه الحديث .
إنه — بغير شك — زوجها قد بر يمينه ، ورمى الناقة الغريبة

عندما رآها تَرَدُّ الماءَ مع إبلِ جساس .
ثم سمعت أباها يقول وهو ينصرف عنها :
« ولكنى سأثأر . وحق مناة ليكونن ثأرى عظيماً لناقة
جارى » .

فأسرعت جليلاً من ورائه حتى أدركته وعادت فدت يدها
وأمسكت بذراعه وصاحت به :

— أنتأر لناقة يا ابن مرة ؟ إنها لَهمة ضئيلة .
فضحك جساس ضحكة مرة وقال : « لأقتلن فيها خلا » . ثم
مضى مسرعاً يقصد نحو سعد بن شمس :

فشرّد خيال جليلاً في كلمات أخيها : فقد عرفته لا ينطق لغواً
ولا يفوت أمراً عقد عليه سنته ، فما ذلك الفحل الذى سيقتله ؟ أى
فحل هذا الذى يقتله جساس فى الثأر لسراب — هذه الناقة
العجفاء سراب ؟ وكادت المخاوف تتجسم لها تزيد من تهويل الخيال
لولا أنها صرفتها وردتها . فما كان لجساس إلا أن يقتل فحلاً من
إبل زوجها فى انتقامه .

لقد كان لزوجها فحل ليس فى إبل العرب فحل مثله . هو
الفحل « غلال » الذى تُضرب الأمثال بمظم هامته وعلو قامته ،
وقوة هديره وشدة وطأته . فهو يريد أن يقتل هذا الفحل العزيز على
زوجها لكى يفجعه فيه كما فجع جاره فى ناقته الهزيلة . وتبسمت

عند ذلك تبسم سخرية من أخيها الذي يُسِفّ ويدفعه حنقه
وحقده إلى مثل هذا الهراء .

ووقفت حيناً تنظر في اشمئزاز إلى خالتها الشعثاء وهي تصرخ
صراخها المنكر في ثيابها الممزقة ، ولم ترد أن تطيل الوقوف عند
مثل هذا المنظر الشع ، فعادت أدراجها نحو بيتها .

ولكن صراخاتها كانت تلاحقها وهي تنشد صائحة :

لعمري لو أصبحت في داره منقذ

لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي

ولكنني أصبحت في دار غربة

متى يعد فيها الذئب يعدو على شاتي

فيا سعد لا تفر نفسك وارتحل

فإنك في قوم عن الجار أموات

وكانت ألفاظ أخيها تعود إليها بين صرخات خالتها وترنّ

في أذنيها إذ قال : « لأقتلن فيها فخلاً ؟ » فنسائل نفسها : ماذا

لعله يقصد سوى أن يكون ذلك الفحل غلالاً .

وذهبت إلى فراشها عقب عودتها ، فاستلقت فيه ضعيفة ،

ولا تزال الوسائس تعاودها حتى أقبل زوجها عند المساء ، فدخل

الخباء إليها قبل أن تهض للقائه . وقد سرى عنها عندما رآته باسمها

صرحاً كثير الدعابة والفكاهة . ففضى معها صدر المساء في سمر

ثم قاما معا فأصابا شبتا من الطعام فإنها لم تذوق منذ الصباح طعاما .
ثم جلس إليها يحدثها ويصاحكها حتى زال عنها أثر الدوار الذى
ألم بها ؛ ولكنه لم تتكلم بشيء عن رمية ناقة سعد بن شمس
جار السوس ، ولم تفتحه حليمة بالأمر خوفاً أن يعرف منها
ما قاله جساس .

جاء فى جوف الليل طارق يزور كلبيا ؛ فالتقى معه مكانا فى جاب
الحيمة ، وجعل يسارّه بعض الحديث ، ثم مضى بعد حين وعاد
كلب إلى مكانه مع زوجته ، وأخذ يحدثها بذكر أيامه الماضية ومواقفه
المشهورة مع قبائل اليمن منذ سنين ، ولكنه لم يذكر لها كلمة عن
خالها السوس ، ولا عن الناقة سراب ، ولا عن أخيها جساس .
وكانت جليمة منذ خرج الزائر تحب أن تستطلع من زوجها
الخبر الذى حمله الرجل إليه ؛ لأنها خشيت أن يمشى الوشاة بينه
وبين أخيها بالكذب فيزداد ما بينهما من الكره ، ولكنها لم
تجد وسيلة لفتح أبواب الحديث الذى يؤدى إلى ذلك الاستطلاع .
غير أن كلبيا ذكر فى عرض كلامه فله غلّالا ، وجعل يعدد
محاسنه بين الإبل ؛ فاستخلصت جليمة من ذلك أن الزائر قد حمل
إليه ما قاله جساس ، وتهديده بالانتقام بقتل « غلال » ، فتنفست
الصعداء وقالت فى نفسها : « إن كلبيا لن يزداد إبنغالاً فى عداوة أخيها
ما دام قد عرف أن انتقامه ليس موجهاً إلا إلى فحل من الإبل » .

ماتت «سراب» ناقةً سعد بن شمس الحرى صيف البسوس .
وما كان موب ناقة ليقع على قوم مثل ما وقع موب هذه الناقة على
بنى مرة قومِ جساس . لقد حاولوا جهد طاقتهم أن يترفقوا في
نزع السهم من ضرعها وأن يداووا جرحها ، وكانوا يتلهفون على
سلامتها كأنها مريض عرير يحيط العواد بفراشه .

لما ماتت اهتر لها الناس وفضوا أياما في وجوم يتوجسون
من خوف ما قد تطالعهم به الأماسى والأصباح . ولكن الأيام
مرت أسابيع بعد أسابيع ولم يحدث حَدَثٌ مما كان يخشون ؛
فهدأت المخاوف وأخذ شبان تغلب يتفكهون فيما بينهم تهديد
جساس كليا أن يقتل فحله «غلالا» ؛ فقد عرف العرب أن يثأروا
بطلب الدماء لرجلهم ، ولكن هذا جساس بثور لطلب فحول الإبل
انتقاما للنياق ! ثم هذا هو يسكن ويركد ويخشع بعد أن أظهر له
وائل بن ربيعة أنه ير بيمينه ويحقق وعيده ، ولا يبيح لأحد أن
يستبيح حاه . وأى أمرى يكون هذا جساس إذا قس بسيد ربيعة
المنيح الذى لا يلتفت إلى ورائه لمثله ؟ إنه تجرأ واعتدى على فارس
تغلب الخيف ، وكان اعتداؤه بدعة لم يجروا عليها من هم أعز منه
وأقوى جنانا ، حتى إذا ما سطا به كليب وأظهر له نواجذه غضبا

خشع ولزم الحدود ، وتحامى أطراف الحمى .
وكان جساس فى أثناء هذه الأيام يسمع الهمسات التى يتفكك
بها شبان تغلب فتقع فى نفسه وقع السهام ، ودخله من ذلك همٌّ
مضن حتى حال لونه ، وصار لا يأنس إلى أهل ولا صحاب ، ولا يحضر
مجالس بكر فى نواديهم . فما كان أحد يراه إلا فى الأطراف البعيدة
الموحشة سائراً وحده ، فإذا أنس إلى أحد من الناس فما كان أنسه
إلا إلى فتى ضئيل من أهون بيوت بكر وأضعفها حولاً ، فى ضعيف
لم يشترك مرة فيما يشارك فيه الفتيان من لهو أو جد ، ولم يعرف أحد
له محلا فى أمر عظيم . كان هذا الفتى عمرا بن الحارث البكرى غريم
الكلب عساف الذى عرف الناس جميعا قصته .

كان عمرو يحمل لوائل بن ربيعة صنفا من الكراهية عجيبا .
لا يتحمل أن يسمع ذكر اسمه . فإذا سمعه اضطرب واختلج ومضى
فى سرعة تشبه الذعر ، ولكنه كان لا ينطق بكلمة ثم عن كرهه
ولا يشارك فى الهمسات التى يتهامس بها شبان بكر عن طغيانه
وعسفه . وقد وقع فى قلبه هذا الكره العجيب منذ يوم بعيد ،
إذ كان يسير على مقربة من روضة وائل بن ربيعة فنبحه الكلب
عساف الواقف عند مدخلها وهجم عليه فزق ثيابه وعضه فى فخذه
فكاد ينزع نساها . فجرى الفتى فى ذعر خيفة أن يراه الأمير
المخيف فيوقع به عقوبة لا قبل له بها ، كما كان يوقع بكل من

تجراً واقترب من موضع عساف . وأحس عند ذلك ذلّة طعنت قلبه ، ولكنه لم يستطع أن ينفس عنها بكلمة إلى حميم . منذ ذلك الحين انقلب شعوره بالذلّة حقداً يأكل القلب ، وزادت كراهته عمقا وقوة على مر الأيام كلما تبين له مقدار عجزه عن الانتصاف من الأمير العنيف . وساء الناس منذ ذلك اليوم غريم عساف سخريةً وازدراءً .

فلما وقع ما وقع بين جساس وكليب ، ورأى ما آل إليه أمر جساس من مباحدة الناس واطوائه على نفسه ، أنس ذلك الفنى إليه فأطلعه على خبيثة نفسه ، فإنه إذا لم يستطع أن ينتقم بنفسه من الأمير العزيز قد يقوى إذا شاركه جساس بن مرة ، فهو في منعة من أبيه شيخ شيبان وأخوته وأبناء أخوته ، وكلهم من فرسان بكر الذين لا يسلموه ولا يتخلون عنه . ولكنه كان يحاذر في لقاءه خيفة أن يراه أحد من أتباع وائل فيكشى به إليه فيوقع به وقعة لارحمة فيها ، وهو ضعيف ليس من ورائه من يعتز به . ولهذا كان لا يجتمع به إلا خلصا في ظلمة الليل في أمن من الأنظار . فإذا ألم به ساعة من نهار لم يبق معه إلا إذا اطمأن على أن العيون لا تراهما معا . فإذا رأى أحداً قريباً منهما ترك صاحبه وذهب في طريق غير طريقه .

ولما مضت هذه الأيام بغير حدث جديد ، حسب الناس أن

الأمر قد انتهى إلى نهايته ، وأن جساسا قَنِعَ بعزلته وعدل عن محاولة ما لا يستطيعه ، واطمأنت تغلب على رئيسها وبطلها ، واطمأنت بكر على أمنها وسلامتها ، ونسى الجميع الحادث الذى مر ، إلا أن تكون فكاهة يتفكهون بها ، ويجعلونها موضع سمرهم والتندر فى مجالسهم .

غير أن جليلة كانت دائماً الترقب والحذر ؛ فقد كانت تعرف أباها وما كان يملأ قلبه من الغيظ الذى ظهر لها مما سمعته من قوله الحانى كلما رآته ، فكاب لا تزال تنتظر الغد وما يأتى به ، وتحس فى قرارة نفسها أنه إنما كان ينتظر الفرصة السانحة والفرصة الملائمة .

فكانت تجلس كل ليلة فى خشوع قبل نومها ، تناجى مناة وأوالا وتدعوها ليحفظا لها زوجها العزيز .

وخرج وائل فى صباح يوم كعادته . وكان يقصد ذلك اليوم أن يتنزه عن الحى ، ويذهب إلى روضته ، وأمر بعض عبيده أن يتبعوه إليها ليعدوا له فيها طعاماً وخمراً .

وذهب إلى مرعى الخيل فركب فرسه الرباب ، ودعا كلبه عسافاً ليرافقه ، وسار وحده سيراً هيناً وقلبه ممتلئ بنشوة الصباح ، والنسيم البارد يبعث فى جسمه نشاطاً وفى نفسه خفة وسروراً . وهزه الشباب وتملكه الطرب إلى الحياة ، فأخذ يغنى بملء صدره ،

وبدت له الدنيا تفيض بالسعادة والجمال . ولمح أثناء سيره شخصاً
 جاعاً عند ثنية من ثنايا الوادى ؛ فلما وقع بصر الشخص عليه
 أسرع ذاهباً عن طريقه ، فتبينه فإذا هو عمرو بن الحرث الفتى
 الضئيل الذى كان يراه أحياناً يجالس عبيده فى مراعى الخيول ؛
 فلم يكثر به ولم يحفل بوقوفه عند الثنية ، ولا بإسراعه هرباً عند
 مقدمه ، فلم يكن عجباً أن يسرع مثله ليبعد عن الطريق التى
 يسلكها سيد ربيعة .

وذهب إلى الروضة فوقف عند مدخلها حياً يتأمل جمال
 منظرها ، ويملاً عييه من اخضرار أشجارها ونخيلها ، ونضرة
 أعتابها وزهورها ، وقد عقد الندى قلأئد مشورة على أديم
 الأرض الزبرجدى ، وانتظمت حباته فى أسلاك نسج العنكبوت ،
 فبدت كأنها درر تتلأأ فى شعاع الشمس المشرقة . وفيما هو واقف
 بفرسه سمع كلبه ينبح نباها يخالطه انزعاج ، ثم سمع من خلفه وقع
 حوافر فرسين يقتربان منه ، فتكبر أن ينظر ورائه ، لعلمه أن
 الراكبين إذا فطنا إلى وجوده أسرعاً مبتعدين عن حماه ، ونقى واقفاً
 ينظر أمامه ويتملى بحسن روضته . ولكن وقع الحوافر لم يبعد ولم
 يقف . بل أسرع وتقدم فى تجاهه ، حتى صار على قيد خطوات منه ،
 وعند ذلك سمع صوتاً يناديه من ورائه : « يا كليب الرمح ورائك ! » .
 فعرف أنه صوت جساس . ولكنه لم يلتفت إليه ، وقال فى

لهجة ساخرة : « إذا صدقت فأقبل من أمامي » .

وسار على رِسله فوق ظهر الرباب .

وما كاد كليب ينتهي من كلامه حتى أحس طعنة شديدة في ظهره ، فارتدى عن فرسه ، ووقع على الأرض يتشحط في دماؤه . ورسّت في أذنيه صيحات عدوه الوحشية ، ونزل جساس مسرعاً عن فرسه واقترب منه مكشراً كابن آوى إذا وجد جيفة .

فنظر إليه وائل نظرة تمثل فيها معنى الاحتقار والحنق ، واختلط فيها شعور الغيظ بالعجز والضعف ، وهمّ أن يقوم إليه فلم يقو على النهوض ، ففحص الأرض بقدمه وتقلب في دماؤه ، وما هي إلا لحظة حتى لحقه دوار الزيف ، واعرته غشية الموت . وأقبل عليه جساس ينزع الرمح من ظهره وهو يخصصه في قسوة ويقول : « ذق الموت أيها الطاغية » .

وفهق وائل فهقات ألم ثم غشي عليه . وكان يفيق من غشيته إفاقة قصيرة ، فيحاول أن يتكلم فلا يستطيع ، إلا تتممة خافتة لا تسمع ألفاظها ، ثم اعتراه عطش شديد فقال وهو لا يدرى من يخاطب : « أغثنى بشربة ماء » .

ولكن جساساً نظر إليه ، ثم ضحك ضحكة مخيفة وقال في صرخة جشاء : « لا ابتل لك ريق أيها الطاغية » ! ووقف يتأمل نزعته في سرور .

وكان عمرو بن الحارث في تلك الأثناء واقفا وراء جساس وهو يرتعد ، وقد علتة صفرة تشبه صفرة الموت ، فلما سكن وائل أشار إليه جساس أن يتقدم فأتى إليه متردداً ، فطلب منه أن يساعده على تغطية القتل بالحجارة حتى لا تأكله السباع .

ولما أتما وضع الأحجار عليه ركبا عائدين نحو مضارب الحيام ، ولكن عمرو بن الحارث لم يجرؤ على أن يواجه قومه بخبر الجريمة ، فركض فرسه لا يلوى على شيء حتى دخل بيته ، فقبع فيه وهو يتفصّد عرقاً ويهذى هذيان المحموم ، وركب جساس فرسه وركض نحو خيمة أبيه مُمرّة ليحمل إليه النبا المستوم ، ولكنه لم يملك نفسه في ركوبه فبدت ساقاه عاريتين وهو لا ينتبه إليهما مما اعتراه من الدهول .

كان الشيخ مُمرّة جالساً في فناء بيته مع بعض بنيهِ وحَفَدَتِهِ وبعض إخوته وأبناء عمومته ، فرأى جساساً يُقبل على فرسه راكضاً وهو عارى الركبتين ، فالتفت إلى من حوله وقال في فرع : « ما رأيت جساساً يركب كما أراه اليوم » .

ثم صاح بابه وقد صار على مسمع منه : « ما بك يا جساس ؟ » فقال جساس في صرخة مفرّعة : « لقد طعنته طعنة يجتمع لها بنو وائل غداً رقصاً » .

فقال مُمرّة وقد قام مذعوراً : « ومن قتلت ويحك ؟ » .

فقال جساس فى وحشية : « قتلت كلييا ! » .
ثم رفع رمحہ فوق رأسہ وجعل يلوح به فى الفضاء ، وقال
فى ضحكة جنونية : « وأدرکت ثأر البسوس » .
فصاح أبوه وهو يرفع يده كأنه يريد أن يضرب :
— أ كليب فى ثأر سراب ؟

فقال جساس وهو يلوح برمحہ فوق رأسہ :
— أنا ابن مرة . أنا جساس — لست ممن يُخفر جواره .
فاتجه إليه الشيخ وأخذ حفنة من الرمل فرماه بها فى وجهه
وقال صارحاً : « ويل لك من مشئوم منكود ! ماذا جلبت على
قومك من الهلاك ؟ إذهب عني فلست من أهلى . إذهب عني فلقد
سللت نفسى من جريرتك ! » .

فرفع جساس رمحہ وهزه ، وجعل يرقص فى سرجه كأنه
يتغنى وهو يقول : « فرع الشيخ من حوف الثأر ! » .
ثم نزل عن فرسه واقترب من أبيه قائلاً : « دعى أيها الشيخ
وحدى . لست أريد حمايتك ، فقد عرفت أنك لا تجرؤ على
الدفاع عني » .

فانتفض الشيخ فى غضب ، ونظر نحو ابنه المحبول لحظة وهو
حائر ، واستغلق عليه التفكير والقول فلم يجب بكلمة ، بل وقف
مشدوها ينظر إلى من حوله فى اضطراب ، وقد وقع رداؤه عن

كتفيه ، وسقطت عصاه من يده المرتعدة ، وصاح بعد حين بصوته المختنق :

— أين هام ؟

وكان أناؤه وحَفَدته قد هبوا جميعا ، وقفوا حوله في حيرة ودهشة ، وتقدموا نحوه يرفع بعضهم الرداء ليغطي به كتفيه ، ويمد آخر يده بالعصا إليه وهم سكوت من الحزن والحزن .

فصاح بهم الشيخ في حنق :

— أين هام ؟ أهو اليوم في لهوه ؟ أين هو ؟ إذهبوا إليه فليجىء !

كان في ثورة نفسه يتحرك في اضطراب ، ويتردد متجها إلى جهة ثم عائداً إلى أخرى . ثم وقع نظره على سَيْح كان جالسا في جواره ، فراه جالسا لا يتحرك في مكانه ، وينظر نحوه في دهشة ، فمد مُرّة إليه يديه كأنه يستنجد به في حيرته ، فقام إليه الرجل متباطئا ، ثم قبض على ذراعه وانتحي معه جابا . فلما صار الرجلان بحيث لا يسمع أحد حديثهما قال مرة — وهو لا يكاد يبين — : « ماذا ترى يا أبا عامر ؟ » .

فقال أبو عامر في هدوء : « أترى تقدر على إعادة كليب ؟ أيعود الأموات إلى الحياة ؟ » .

فنظر مرة إليه مبهوتا ولم ينطق بلفظ ، فاستمر الشيخ في

كلامه هادئاً : « لقد كان ما كان ، ولم يبق إلا النظر في أمر القوم .
وأنت إذا تماديت في لوم جساس خذلت بني بكر وبني شيبان إذا
احتجت إلى نصرتهم » .

فهذا مرة قليلاً وقال : « وماذا ترى يا أبا عامر فداؤك نفسي ؟ »
قال أبو عامر : « دع اللوم والجرع واظهر للقوم شدة ؛ فإن
ذلك أدعى أن يقتصدوا في طلب الثأر ، وذمّر بني بكر وحرصهم
على القيام لنصرة جساس » .

وسكن الرجل قليلاً ، ثم نظر إلى الشيخ مرة وقال له هامساً :
« يا أبا هام . أما إنها لطعنة حر أبي ! أما تذكر كيف كان كليب
يسومنا الذل ونحن لا نستطيع أن نرفع نحوه عيوننا » .

فانتفض مرة ، ومد يده مسرعاً فأمسك بذراع أبي عامر ،
وتلفت حوله حذراً ، ثم قال هامساً : « أو ترضى يا أبا عامر ؟ » .
فقال الرجل :

« أما وحق الآلهة جميعاً ، لقد وددت أن طعنة جساس قد
مدت بها رماح بكر كلها . كان كليب طاغية يحمي المرامي ويمنع
الماء أن نرده ، ويبالغ في طغيانه ، فيجعل كلبه يأمر سادتنا
ببناحه ، فلا يستطيع أحد منهم أن يرد عليه لفظاً » .

فتنفس الشيخ مرة ، وقال ولا يزال صوته هامساً :
« ولكنها الحرب يا أبا عامر ! هي الحرب الطاحنة والبلاء
العظيم » .

فقال أبو عامر :

« أراك سكنت إلى الدعة يا أباهام ! وماذا تخشى من الحرب
وأنت فارس بكر العتيق . هل تسلس ربيعة القياد لمن يكره حر
الجلاد ؟ » .

فسكت الشيخ لحظة يفكر فيما يقوله صاحبه ، واستمر
أبو عامر فقال :

— « وما فضل تغلب على بكر حتى يستأثروا دون بني عمهم
بهذا الأمر ؟ أقنع يا مرة بأن تكون صهر العزيز ؟ أقنعت
يا شيخ بكر بما يلقيه إليك بنو أبيك من فضلات عزهم ؟ »
فصر الشيخ على أضراسه ، ثم سحب صاحبه من ذراعه
وعاد نحوه ولده وكان أهدأ عند ذلك قولاً .

ولما صار عند الجمع المنتظر ، قال يخاطب ولده : « نحن
للحرب يا ولدي ! أنت منا ولن تُسلمك بكر أبدا . لست أسلمك
حتى أقتل دونك مع قومي أو نشعلها ناراً حامية على قوم الطاغية
الظالم » .

فلما سمع بنو شببان قول شيخهم مرة اهتزوا وعادت إليهم
نفوسهم ، وتصايحوا : « يا لبكر ! قتل الطاغية ! » .

واندفع جساس عند ذلك إلى أبيه فعانقه وقبل يديه وقال في
خضوع وصوته يكاد يختنق من التأثر : « لاعدمتك ناصراً يا أبى ! »

ثم أخذ رمحـه وهزه فوق رأسه وجعل يرقص رقصة التحدى والاعتداد بالنفس ، ويتغنى بأناشيد يدعو فيها قومه إلى حرب الطغاة .

وصاح مرة فى قومه وقد تبدلت لهجته ، فقال : « يا بنى شيبان ، سأضرب بأطراف العوالى ، وأنبى الذل عن قومى وشرفى ؛ فما كانت بكر' ليخفر جوارها أو تستكين للطاغية » .
فقال أبو عامر : « يا بنى شيبان ، من يكون للحرب إذا لم تكونوا فرسانها ؟ » .

فتصاعدت صيحة من القوم : « سنسل السيوف وندفع ظلم تغلب . لقد هلك الطاغية . سندفع البنى ، ونحمى قومنا من عار الخضوع والذل . »

وأسرع الجميع إلى بيوتهم ينقلون النبأ الخطير ، واختلى مرة وأبو عامر ساعة ، ثم بعثا الرسل إلى قومهم بالاستعداد للرحيل . فقد علما أنه لم يكن لسيبان بعد مُقام فى جوار تغلب ، وأنه لا بد لهم من انتظار الغد وما يأتى به من الأحداث .

كان همام بن مرة مختلياً بصدقه المهلهل عديّ بن ربيعة
 كعادتهما كل يوم يشربان الخمر عند ربوتهما المختارة في عزلة من
 قومهما . وجلسا يلعبان النرد وهما يرشقان الشراب ، وانتهى
 الدست ، وكان المهلهل غالباً ، فد يده إلى كأسه مرتاحاً ورفعها
 فنظر فيها إلى الخمر المصفاة وجعل يشمها في شغف ، ثم رفعها إلى فمه
 وهو يضحك ضحكة ماجنة ، وقال ناطراً إلى صاحبه :

— أبشرى يا أرامل ربيعة ! لأنها جرور من خير مال همام
 ابن مرة .

فرفع همام كأسه لشرب منها ، وقال وهو يجيب بضحكة مثل
 ضحكة صاحبه :

— ما كانت أموال همام بن مرة لتباح إلا للأرامل !

ثم وضع الكأس وقال للمهلهل :

— دست آخر إذا شئت أن تطعم سائر أرامل تغلب .

وكان المهلهل قد شرب كأسه في جرعة ، فقال وهو يعص

شفتيه :

— مهلا يا عديّ ! فإن حظي اليوم غالب .

ووضع الكأس ، وأخذ الرد في يده فضرب به ولعب لعبته
فاذا بالرد يواتيه بلعبة نارية ، فصاح صيحة فرح ولعب اللعبة
وهو يقول :

— لئن طال بنا المجلس لم أدعْ لك مالا يا همام .

فقال همام وهو يضحك :

— أرى الحظ يواتيك يا عدى منذ اليوم .

ثم رمى الرد فخرج له أقل وجوهه غناء . فضحك الصاحبان
معاً ، ورفعا كأسيهما فرشفا منهما رشفة ، ثم لعب همام لعبته وقال :

— أرى السعد لك خدأً ياعدى . يواتيك في لعبك كما يواتيك

في حبك . هل رضيت عنك سلمى ؟

فرمى المهلهل الرد وهو يقول :

— ما أبالى إذا هى لم ترض .

ونظر الصديقان إلى الرد فاذا به لعبة نارية . فضحكا معا

ولعب المهلهل لعبته وهو يقول :

— أما قلت لك إننى لن أدعْ لك مالا . أبشرى يا أرامل

بكر وتغلب بجزور أخرى من أموال همام !

واستمر الصاحبان يلعبان ويتسامران ويشربان حتى مالت

الشمس للمغيب . وكان المهلهل فى كل مرة غالباً حتى قر صاحبه

بعشر جزر من ماله ينحرها لأرامل بكر وتغلب . ثم جلسا

يتناشدان آخر ما قيل في قبائل العرب من شعر ، وجعل المهلهل يشد صاحبه بعض ما قاله من الغزل في صويحباتهما اللاتي كن حيناً يشاركنهما مجالس المحون ، وحيناً يغاضبنهما ولا يحضرن مجلسهما . وفيما كان المهلهل يشد بعض شعره رأى صاحبه يلتفت إلى ناحية من الوادى وينظر إليها في اهتمام . فقال ضاحكاً :

— أراك فاتراً عن سماع الشعر يا همام . كأن شعري لا يمجبك .
فلم يجبه همام إذ كان منصرفاً ننظر إلى أسفل الوادى ؛ فالتفت المهلهل ومد عنقه ليرى أين ينظر صاحبه ، وقال له فى مجون :

— هل أقبلت سلمى ؟

ولكن هماماً لم يجبه ، بل قام من مجلسه وسار هابطاً إلى الوادى الذى تحتهما ، فاتبعه المهلهل بنصره فرأى جارية تقود فرساً وتشير إليه تستعجله أن يذهب إليها .
فقعد المهلهل ينتظر عودته وملاً لنفسه كأساً وأخذ يتغنى وحده بشعره حتى رجع صاحبه وهو ممتقع اللون مضطرب ، يكاد يتعثر فى خطاه ، فقال له المهلهل ضاحكاً :

— ماذا حملت إليك الجارية ؟ أهو موعد جديد ؟

فقال همام متردداً وهو يحاول الانسسام :

— هات لى كأساً .

وكان الصديقان قد تعاهدا على الصدق لا ينكر أحدهما من

صاحبه حديثاً ؛ فقال له المهلهل معاتباً :

— أراك تكتم عني سرّك يا همّام .

فقال همّام مرتبكا :

— أما إنه لقول لا أصدقه .

فقال المهلهل ضاحكا :

— لعلها تنسئك بغدر سلمى ؟

فقال همّام في وجوم :

— لا أبالي اليوم سلمى !

وكان المهلهل سادراً في الخلاعة لا ينصرف عن أحاديث الخمر

والنساء ، فقال :

— إذن فهي مى أو أميمة .

فقال همّام متكلفاً الابتسام :

— أى زير أنت يا عدى !

فضحك المهلهل من قوله . فما كان أحب إليه أن يلقب بهذا

اللفظ الماجن الذى سماه به أخوه الحبيب وائل بن ربيعة . لقد

سماه زير النساء ، فتلقف الناس عنه ذلك الاسم ، فما كانوا

يذكرون المهلهل إلا به ، ولكن المهلهل كان يحب أن يسمع

اللقب الذى اختاره له الشقيق العزيز على ما به من تعنيف ولوم .

وماذا عليه أن يسميه الناس زيراً ؟ فهذا أعذر له أن يسدر في

غوايته ، وأحرى بأن يحمل الناس على تركه لسانه وخمره ، ولا بأس عليه منه إذا كان هو يفوز بالذات . فقال لصاحبه :
— دع ذكر هذا ، فأنت أولى بهذا الاسم منى . ولكن ما قالت تلك الجارية ؟

فلم يكن لهمام بد من أن يصدق صاحبه ، وقد ألح عليه بالسؤال ، فقال جاداً :

— لقد زعمت الجارية أن جساساً قتل كلياً .

فضحك المهلهل ضحكة عالية ، وقال وهو يعلأ كأسين :

— تقول جساس قتل كلياً ؟ أما إنها لفكاهة من جارية

لكاع . إن جساساً لا يقوى على أن ينظر إلى طهر وائل بن ربيعة . خذ هذه الكأس .

فتناول همام الكأس وشرب منها قليلاً ، وبظر إلى صديقه

وهو يرفع كأسه ويتجرعها ، وشعر كأن حملاً نقيلاً ينزاح عن عاتقه

عندما رأى المهلهل لا يصدق النبأ . وقال له مداعساً :

— أترى لو صدقت الجارية . أكنت ثائراً بأخيك ؟

فتجههم وجه المهلهل وقال متلعثماً :

— وحق مناة ليس له من كفاء إلا أنت .

فقال همام : ..

— أتحب أن ترانى قتيلاً يا عدى ؟

فتقبضت عضلات وجه المهلهل ، وبرق عيبيه ، وهر رأسه في عنف وقال :

— والله ما أدري أيكما أحب إلى يا همام . دع هذا الحدث فلست أحبه .

فتنفس همام في حزن ، ونظر إلى صاحبه وقد مالت رأسه واختلت حركته ، حتى صار لا مستوى من السكر ، وكان الليل قد أقبل ، وهبط على الوادى الظلام ، فنظر همام حوله وقال :

— أحس التعب يا عدى ، والليلة مظلمة .

فقام المهلهل وهو يترنح ، وأسنده صاحبه من ذراعه حتى ركب فرسه عائداً إلى منزله ، ومضى همام إلى الفرس التى أتت بها الجارية ، وسار مع صاحبه حتى ثبية الوادى التى تفرق عندها الطريق إلى منزليهما ، فودعه ضاحكاً ، وأسرع إلى مضارب خيامه ، فرآها خالية وقد ارتحل القوم عنها كما قالت له الجارية . فهمز جواده وأنطلق في أثر قومه وهو يلتفت بين حين وحين إلى ورائه فى الظلام لعله يرى ضوء نار يملأ به عينيه من الديار العزيزة التى شهدت لذاته ووثبات لهوه مع صديقه الخليل عدى ابن ربيعة .

ولما بلغ المهلهل منازل طالعته خجّة من قبلها . فدار به رأسه المخمور وخيل إليه أن الضباب يغطى ناظريه ، ثم رأى أمامه النساء

يندبن ويبيكين ويشققن ملابسهن . فمجب و حار كأنه في حلم مزعج
ونزل عن فرسه يسألهن عما أصابهن في لسان معوج ، فكان
لا يسمع إلا صياحاً أو سباً . ثم رأى الرجال يضطربون في الظلام
ويتنادون في فزع ، وقد أقبل بعضهم على سلاحه يكسره ،
وبعضهم على خيله يعقرها ، فكان ذلك كله عجباً من أمرهم لم يفهم
منه شيئاً إلا أن يكون الحبل قد أصابهم . ومرت في خياله الفاتر
صورة كليب ، وتذكر قول همام إذ قال له حديث الجارية ؛ وساءل
نفسه : أياكون جساس قد قتل كليباً ؟ أليس هذا الذي يراه
بعض أحلام الخمر ووساوسها ؟

واقترب من الناس يريد أن يسألهم ، فجعلوا ينظرون إليه
في ازدراء ثم يصرفون عنه وجوههم ، وسمع قائلاً منهم يقول :
— لم يبق لنا إلا هذا السكير الماجن ، الذي لا يكاد يفريق ،
إنه آت هذه الساعة من مجلس مجونه .

ومضى في سيره حتى بلغ ساحة منازل ، فصاح بمن هناك
وقد عاد إليه بعض وعيه :

— ما بالكم تكسرون السلاح ؟

فأسرعت إليه أمراءه وصاحت به وهي حاققة :

— قتلوا كليباً وأنت منصرف إلى شرابك ولهوك !

فنظر إليها المهلهل في غضب ، وقد وخزته كلماتها وثار الدم

فى رأسه حتى ذهب عنه أثر النحر ، وقال لامرأته :

— ما ذا تقولين ؟ لقد كذب من يقولها .

ورفع رأسه ، واعتدل فى وقفته ، وتغير لون وجهه ، فصاح
به القوم فى غضب :

— قُتِلَ المنيع العزيز ، فكن حيث شئت . كن حيث شئت
فما نراك تُبالى .

فأربد وجه المهلهل ، ونظر إلى قومه غاضباً ، واكنسب مظهره
عزماً لم يعهده فيه أحد ، وقال كأنه يُعيق من حلم : « قتل كليب ! »
ثم ذهب إلى جانب من الفناء ، فجلس على صخرة ووضع ذقنه
على يده ، وجعل ينظر إلى القوم حيناً ، وهم فى شغل عنه بما هم
فيه من اضطراب وجزع ، يكسرون السيوف والرماح ،
ويتصايحون لكي يبعثوا إلى الخيل ينحرونها . فاشتعل قلب المهلهل
غضباً ، ودبت فيه ثورة عجيبة أحس نفسه تيجش بها ، فوثب من
مقعده ، وصاح صيحة ترددت أصدائها فى الليل المظلم :

— أيها الحق ! ماذا تفعلون ؟

فنظر إليه القوم فى عجب ، ورأوه يتجه إليهم ، فوقفوا
ينظرون ماذا يريد منهم ذلك السكير ؛ فلما جاء المهلهل إليهم
وقف رافعاً رأسه وعيناه تلمعان ، وضوء النيران الملتهبة تتلاعب
على وجهه المربد ، وقال لهم بصوت أجش :

— إنكم تسبوننى منذ الليلة ، وما أتم إلا كبعض النساء .
أراكم تكسرون السلاح وتقتلون الخيل ، وأتم الآن أحوج
الناس إليها .

فنظر إليه الرجال لحظة لا يصدقون آذانهم إذ يسمعون .
أهذا المهلهل الذى يكلمهم ؟ واسنمر المهلهل فقال :

— دعوا الحزن للنساء ، يشققن الثياب ويصبغن الوجوه ،
ويصرخن ويبكين . أما أنتم ، فأتخذوا السيوف ، وأعدوا الخيل ،
وقوموا الرماح . دونكم الحرب . فاستعدوا للحرب ضروس .

ثم ترك الناس وقوفاً ، وذهب عنهم صامتاً مطرقاً ، يعلوه
شئ من الخزى . حتى إذا ما صار فى بيته ارتقى فى ركن وجعل
يبكى وحده ، ويتمثل ما هو فاعل إذا أصبح الصباح .

واجتمع نساء تغلب فى تلك الليلة للنواح فى بيت سيد ربيعة ؛
وعلا صراخهن حتى ترددت أصداؤه فى جوانب الوديان .

وكان فى وسطهن امرأة طويلة القامة ، سمراء اللون ، هيفاء
دعماء . قد شقت ثيابها ، ونشرت شعرها الأسود الطويل ،
وعفّرت وجهها الجميل ، وكانت تحتلج وتهتز من شدة البكاء .

وكان النساء يشرن إليها ويتها مسن بين صرخاتهن :

— هذه جليلة ابنة مرة سبب البلاء . إنما هو أخوها جساس

وقومها الجناة .

وهاجت لإحداهن ، فصاحت في عويلها وهي تنظر نحوها :
— ما مُقام الأعداء بين ظهراينا ؟
فنزرت جليلة بعينها المحمرتين ، وقالت بين شهقاتها :
— إنما أنا المفجوعة الكلومة .
فصاحت بها أخرى في صراخه :
— إنما أنت وقومك سبب البلية . أخرجني عنا أيتها البكرية .
ثم تعالى الصراخ والسباب من جواب الفناء .
فقالت جليلة وهي تشج بالبكاء :
— علم الله ما أقاسى وما ألاقى ! إنما المصاب مصابي .
فعلت الضجة مرة أخرى وأنهالت عليها قذائف السباب :
— إنما أنت شامتة . إنما أنت عدوة . إعدى عن منازلنا .
لا بقيت بيننا .

فقامت جليلة غاضبة ، وقالت وهي لا تزال تحتلج وتضطرب :
— كيف أبعد عن مناحة زوجي ؟ لإنني صاحبتة ، وأنا التي
فجعت فيه . وهذا الجنين الذي في أحشائي من دمائه . ولئن كان
مصابكم واحداً فصابي مضاعف : هذا زوجي قتل ، وهذا أخي
مطلوب بدمه . فنواحكن مصانعة ومجاملة ، ونواحي تفجع وتوجع .
بعض نفسى يبكي على بعض ، وبعض دمي يثور ببعض ، ولو شئت
لسرت مع قومي ، ولكني آثرت البقاء في تغلب ، حينئذ إلى قوم

صاحبي ، حتى لا يولد هذا الجنين بين قومي فبكون فيهم غريباً
عدواً .

فضج النساء ، وزاد اضطرابهن ، وجعلن يشتمن جليلاً
ويطردنها ، وأقبل بعضهن نحوها يُردن إخراجها دفعاً والإيقاع
بها . فلم تستطع إلا أن تخرج ، ولا تكاد تنظر طريقها وقد حبس
الحزن لسانها ، وأسرع عبدها فأعد لها مطبة . وسارت حتى
ركبت في طريقها ، واطلقت تتبع قومها وهي تقول : « وا حر
قلباه ! قتل الحبيب ، وقاتله أخى ! تعساً لنا ، وويللاً لأوال » .

ثم جعلت تشد ، والدمع شرقها :

فَعَلْ جَسَاسَ عَلِيٍّ وَجَدِي بِهِ قَاطِعَ طَهْرِي وَمُذْنِ أَجْلِي
يَا قَتِيلَا قَوْضِ الدَّهْرَ بِهِ سَقَفَ بَيْتِي جَمِيعاً مِنْ عَلِ
هَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي اسْتَحْدَثْتَهُ وَانْثَنِي فِي هَدْمِ بَيْتِي الْأَوَّلِ
خَصَّنِي قَتْلَ كُلَيْبٍ لَلظَى مِنْ وَرَائِي وَلَظَى مُسْتَقْبَلِ
يَشْتَفِي الْمَدْرَكَ بِالثَّارِ فِي دَرَكِي ثَأْرِي تُكَلُّ الشُّكْلِ
وَكَادَ الْحَرْنَ يَذْهَبُ عَنْهَا لَهَا ، وَهِيَ سَائِرُهُ وَحْدَهَا تَطْلُبُ آثَارَ
قَوْمِ أَبِيهَا ، وَلَا يَصَاحِبُهَا فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ إِلَّا عَبْدُهَا يَقُودُ نَاقَتَهَا .
وَأَصْبَحَ الصَّبَاحُ عَلَيْهَا وَقَدْ أَدْرَكَتْ قَوْمَهَا ، وَسَارَتْ مَعَهُمْ
يَجِدُونَ السَّيْرَ يَطْلُبُونَ أَرْضَ الْيَمَنِ لِيَتَنَعَمُوا بِهَا ، وَيَعْتَصِمُوا مِنْ
قِتَالِ قَوْمِ كُلَيْبٍ .

اجتمع بنو تغلب في ناديمهم ، وقد أقبل الليل وأخذ البرد يشتد ويقسو . وكانت النيران الموقدة في وسط الفضاء ترسل ضوءها على الوجوه ، وتتلعب فوقها في خفوف ، وتمتزج بالظلال فلا تبدو الملامح فيها إلا غامضة مبهمه . وكانت ظلال الأشخاص تتراقص على جوارب الكشبان المحيطة بالفضاء ، كأنها أشباح متحركة من الحان ، تخلع على المجتمع رهبة شاملة .

وكان القوم في اجتماعهم قلقين لا يستقر بهم حديث ، ولا ينظمهم سمر ؛ بل كانوا متفرقين في حلقات متباعدة ، وقد مالت كل جماعة إلى ناحية تتناجى في كثير من الحلق ، وتهب فيهم بين حين وآخر عاصفة من الهياج ، فيعلو ضجيجهم ويحتدم جدلهم ثم يعودون بعد حين إلى التناجى القلق الحاس ، والمحاوره المضطربة .

كانوا في ذلك الاجتماع ينتظرون عودة رسلهم الذين ذهبوا وراء بنى عمهم بنى بكر ليفاوضوهم في تدارك الأمر ومداواة الجرح الذى أصابهم بقتل كليب ، قبل أن يسيروا إليهم بطلب الثأر . وكان يظهر من حديثهم المضطرب أنهم لم يكونوا متفقين على رأى ،

ولا متحدين في غاية ؛ فكانت فيهم طائفة غير راضية بالانتظار ، تنكر لإرسال الوفد للمفاوضة مع قتلة زعيمهم ، لا تفتأ تضح مطالبية بالهوض إلى طلب الثأر ، وتنادى بالحرب لا ترضى فيها بهواده ولا مسالة ؛ على حين كانت طائفة أخرى تشفق من الحرب وويلاتها ، وتنادى بالأناة والصبر ، مؤملة أن ينزل بنو عمهم البكريون على حكم العدل والإصاف ، فبجبيوا إلى توعية شريفة تطمئن لها نفوسهم ، وتقنع بها كرامتهم .

وكانت هذه الطائفة تظهر في جداولها الحاقق أنها لا تريد الحرب ألفة من زعامة ذلك السكير الماحن ، عدى بن ربيعة (المهل) ، ذلك الذي عرفته تغلب كلها ، لا يقطع يومه إلا على نوم من أثر الخمر والنساء . فهل كان مثل هذا الخليع ليخلف كلياً على زعامتهم ؟ وهل كانوا ليلقوا قيادهم إلى ذلك الشاب المعجب بجباله ، التياء في نعيمه ، الذي لا يحسن إلا المناغة والتغنى ، والذي جعل وكده المنادمة والغزل ؟ هل كانوا ليأتمنوا مثل ذلك الشاب الداعر على عز تغلب ومجدها ؟

وكان في صدر النادى فارس تغلب أبو نويره ، جلس محتثاً بسيفه ، وتسكاد لحيته السوداء تلمس ركبتيه وهو مطرق لا يلتفت إلى من كانوا حوله ، وضوء النار الملهبة تقع على وجهه فتظهر فيه أخاديه وندوبه سوداء تسكاد تملأ صفحته ؛ وكان يسمع ما يتقاذف

به الشبان والشيوخ من عبارات المجادلة ، ولكنه كان يتفطرش فلا يدخل في شيء من أحاديثهم الخائفة .

كان أبو نؤيرة يفكر عند ذلك حزيناً فيما تؤول إليه أمور تغلب إذا هي تعجلت الحرب ، فإنه لم يكن إلا أبا عشيرة بين العشائر ، لا يستطيع أن يقود عشيرته إلى الحرب وحدها ، وقد علم أن تغلب قد انفرط عقدها فلا تستطيع أن تحتمع على واحد من فرسانها ، ولم يجد حوله في شبان تغلب أو كهولها ، من يستطيع أن يلم الشمل حوله ويقود قومه جميعاً إلى النصر .

كانت تغلب قد استنامت إلى بطولة أميرها وسيدها وائل بن ربيعة الذي فجموا فيه منذ يوم ، وكان وائل مستأثراً بالرعاية والقيادة والبطولة ، فلم يدع لغيره مجالا إلى جواره . كانت تغلب كلها رعية له تطيع إذا أمر ، ونسير إذا سار ، وتتجه حيثما أشار ، فلم يبغي فيهم من تعود الأمر والقيادة ، ولم يعتد الناس أن يلتفوا حول أحد من رؤسائهم ، إذ كان وائل لا يدع لأحد منهم رياسة ولا سلطاناً ولا جاهاً . كان يستأثر بالسلطان كله في غيره ، فلا يرى أحداً من فرسان قومه يرفع رأسه إلى زعامة حتى يبطش به ويذله وينزع منه كل مطمع فيها . لم يكن في عشيرة وائل نفسها من هو جدير بأن يقود الناس في تلك الأزمة الشديدة ، فلم يكن له ولد ، ولم يكن في أخوته من يستطيع أن يسد مسده ؛ فهذا هو

أخوه عدى المهلهل ، لا يقطع أيامه ولياليه إلا على مواعيد في مجالس اللهو والشراب . وماذا يستطيع مثل المهلهل الماجن أن يصنع إذا الحرب شمر عن ساقها ، وفتحت أفواه الموت للرجال ؟ كان أبو نيرة يفكر حزينا في مصير تغلب . وما كان له أن يسارع إلى حرب لم يكن قومه مستعدين لها . فإن الحرب إذا وقعت لا بد أن تكشف عن تغلب سر الغز. المرائف الذي أسبله عليها بطلها الفذ وائل بن ربيعة . كان الحرن يأخذ على أبي نيرة أسباب التفكير وهو جالس في صدر النادى ينتظر عودة الرسل الذين ذهبوا لمفاوضة بني بكر في مصلحة بني عمهم وإرضائهم من قتل سيدهم .

وكان كلما سمع تقريع الشبان وسبابهم وثورة مجادلهم تحرك في موضعه متألماً ، ولكنه كان يحاذر أن يطق بحرف خوف أن تنفجر حفيظتهم فيجرفهم المهلهل معه إلى الحرب في رعونة ، وهم لا يدركون ما يدركه ، ولا يعرفون ما يعرفه . لقد عركته الحوادث في حياته وحلب الدهر أشطره ، وجرب من الأمور ما لم يجرب هؤلاء الأغرار — المهلهل الماجن وشبانه الذين معه — هؤلاء الأولى يتحرقون إلى الحرب ، حتى إذا ما أوقدوا نيرانها وسارعوا إليها ، كانوا أسرع الناس إلى الجزع منها ، وإلقاء اللوم على زعمائهم الذين لم يتبصروا ولم يتخذوا لها عدتها

ولكنه لم يقدر على أن يبقى على صمته طويلا ، فإن الجدال بين الشبان والسيوخ قد حمى وأوشك أن يصير إلى بضال وعراك . ولم يطق المهلهل البقاء في النادى ، فخرج إلى الفضاء ينتظر عوده الرسل في قلق ؛ وتبعه بعض أصحابه من صغار القوم وهم يسخطون ويسخرون . ثم نهض شاب يريد أن يتسع المهلهل فقال في تهكم : — ما هذا تنظرون هنا أيها القوم ؟ إن الوفد الذى بعثناه لكى يرفع عند قدمى شبان سائلا أن يعموا علينا بالصلح ، لم يعد إلينا منذ ثلاث . فلدهب إلى بوتنا . فما نحن أهل للحروب ؟ فتحرك أبو نويرة قلقاً ، وحاول أن يصرف نفسه عن الحوار ولكن قام بعده شبان يريدون الخروج وراء المهلهل ، وأوشك الجمع أن ينفض من حول أبى نويره .

فأشار إليهم بيده أن يترثوا ، ثم قام يتكلم فقال : — لقد علمتم يا معشر تغلب أننى أبو نويره ، أول فرساكم عند اللقاء ، وآخرهم عند اقتسام الغنى . وعلمتم أننى كنت عند وائل بن ربيعة فى أكرم مكان ، فما أصيب فيه بعد المهلهل وقومه أحد مثل مصابى فيه . ولو كان أحد من تغلب يتحرق قلبه على طلب الثأر ، لكنت أنا ذلك الرجل قبل سواى . ولكن الحرب تحطم وتفتك ، إذا كشرت عن أنيابها وشمرت عن ساقها ، ولا يستطيعها إلا من هركها وصبر على حد نابها ؛ وإنى أشفق عليكم

منها إذا أنتم سارعتم إليها وراء من قد عرفتم أمره . فإن واثلاً لم يخلف من ورائه من أهله من يقوم مقامه ، والحرب لا يقوى عليها ذلك السادر في لهوه ، الذى لا يكاد يُفريق من شرابه .

فعلت من جواب الوادى هممة تعالت حتى تجاوزت الأصوات فيها بالجدال العنيف والسباب ، وهمّ بعضهم إلى بعض بالسيوف . فصاح أبو نويره غاضباً :

— على رسلكم أيها الفتيان ! فما هذه إلا طلائع الخذلان .

فقام شاب من أقصى النادى يهز رمحاً في يده وصاح :

— لقد حملتنا على الدّية ، ورضيت لقومك الدّلة . هذه بكر ترفع ذيلها وتمتنع . وهل كان جديراً بنا أن نأخذهم بغير السيف ؟ ما هذه الثروة التى لا تريدنا إلا دُلاً . أما أننا سنصير فى العرب مُثلة وأحدوثة ؟ إذ وترنا قوم فى عزيزنا فبعثنا وراءهم نسألهم أن يمنوا علينا بالسلام . أى عار جلبتم على قومكم يا شيوخ تغلب !

وعلا الضجيج مرة أخرى ، وترايدت ألفاظ السباب . فقام أبو نيرة وأشار بيده مرة أخرى حتى سكت الناس ، فقال فى صوت هادى* تشبه نغمته أن تكون اعتذاراً :

— لقد كان حقاً علينا أن نعتذر إلى بنى عمنا قبل أن نبدأ حربهم . ولقد عرفتم أن العرب لا ينصرون الظالم ، ولا يؤازرون من أعتدى . لقد قتل جساس كليياً ، وذهب إلى الناس يزعم أنه

بار عليه لطفياه وقتله لظلمه . وذهب الناس عنه بين مصدق ومكذب . فإذا نحن عجلنا إلى الحرب بادىء البدء لم نذهب إلا بكلمة مصدوعة ، ورأى متفرق . فإذا كنا قد آثرنا أن نرسل إليهم رسلنا ، فما هذا إلا لكي نُعذر إليهم ، فنكون بهذا قد قننا بما يجب علينا من رعاية الحرمة ، والحق الذي يوجبه الرحم بيننا وبين بني عمنا . فإذا هم أبوا أن ينزلوا على حكم الحق ويُرضوننا بالقصاص من الكفاء ، سرنا إليهم وكنا عند ذلك يدأ واحدة . وسرى قبائل العرب عند ذلك من ورائنا تشد أزرنا ، وتقوى عضدنا . ولعل قبائل بكر لا تُجمِع على الظلم ، فيقعده بعضها عن حربنا ، أو يعجزون عنا فيسلمون لنا المجرم الذي وترنا . فإذا لاقتنا شبان ظالمة بعد هذا ، كان الحق يخذلهم ، ولم تجد من ورائها من العرب من ينصرهم .

ولما انتهى من مقاله ، ارتفعت الأنظار إليه شاخصة لا تطرف ، كأنها تحملق فيما وراء الأفق البعيد تستشف ما وراءه . وبقى أبو نيرة صامتاً يدير بصره في القوم لحظة ، ثم هم أن يعود إلى القول ليلم ما بدأه من الأثر ، فإذا بصوت ناقة تحن وترغو في أنين متقطع عميق ، تحمله الريح في الليل الساكن من بعيد . فسكت أبو نيرة وأصغى بأذنه إلى الصوت ، وسكن الجمع في مجالسه ينصت ، فقد عرفوا أن تلك ناقة الحرث بن حى أحد الرسل

الموفدين إلى بكر ، وكالت الناقه والدة في الحى تركت فصيلها ،
فما كادت تعود وتقترب من موضعه وتشم رائحته حتى ضجعت له
بالحنين .

ومضى بعد ذلك حين ، خرج فيه جماعة يتلقون الوفد ، وبقى
آخرون ينتظرون ؛ ثم أقبل الرسل وأناخوا إلهم وأتوا إلى النادى
يحيط بهم جماعة الشبان ومعهم المهلهل مشرق الوجه مهللاً .
ولما سلم القوم واطمأنوا فى مجالسهم حول النار بين الكشبان
الناعمة ، قام أبو نؤيرة ببطء وهدوء ، وقال يخاطب كبير الوفد
الحرث بن حى :

— إذا صدق الظن ، وأصاب الحس ، فقد عدتم من بكر
بسيوف مصلته ، ورماح مشرعة .

فساد الصمت لحظة ، ثم رفع الحرث رأسه وتكلم بصوته
العميق وهو مطرق فقال :

— سيعرفون غداً أنهم ظلموا وما عدلوا ، وستقيم تغلب
حقها على حد السيف ، وتنال منهم بالقسر ما أبوا بالسلام .

فتحرك الشبان فى مجالسهم قلقين ، وهما بالوثوب غاضبين .
فقال أبو نؤيرة يخاطب الحرث :

— ألم تنصف بنى عمك يا أبا حى ؟

فقال الحرث فى تردد :

— لقد أنصفنا بنى عمنّا فما أنصفوا . طلبنا إليهم أن يسلموا
إلينا جساساً يقتله فى كليب فنحقن بذلك بيننا الدماء ، فقال أبوه
مُمرّة : « إنه ركب فرسه وضرب فى الأرض ، فهم لا يدرون أى
البلاد انطوت عليه » . فطلبنا إليهم أن يسلموا لنا أخاه هماماً فهو
كفء كريم يقتله نقتيلنا . فقال مُمرّة ساخراً : « إن هماماً
أبو عسيرة ، وعم عسيرة ، وأخو عسيرة ، كلهم بطل فارس ،
ولن يسلموه لو أردب أن أدفعه إليكم لنقتلوه بجريرة غيره » .
فقلنا للشيخ : إدن فقد رصينا بك أنت لنكون مطفئاً لثأرنا .
فقال الشيخ فى عناد : « والله لا أسلم نفسى قبل أن أجول فى
الحرب جولة وأموت مناضلاً » . ثم قال فى كبرياء وغلظة :
« ولكنى أعرض عليكم غير هذا ، أعطيك ألف ناقة سود المقل
لتكون دية كريمة لقتيلكم ! » .

وسكت الحرث لحظة ، وفد بدا على وجهه الغيظ ، وانفجر
الجلوس فى غصبة واحدة ، فلم يستقر أحد منهم جالساً ، ولم يبق
فيهم أحد صامتاً .

وصاح المهلهل وقد كان إلى ذلك الوقت ساكناً :

« واكليباه ! يقتل وهو العزيز ، فى جزور من الإبل . ثم
لا يبذل فى دمه الغالى سوى الجزر . واكليباه ! هل كنت لتباع
بالبنياق حتى يشرب القوم ثمنك لبناً ؟ » .

وعلت على أثر قوله ضجة تصم الآذان . وتصايح الشان من
جوانب النادى : « ويل لبكر ! الحرب والفناء لبكر ! » .
ثم نظروا إلى المهلهل وقد علا وجهه بريق الانتصار ، فقام
ليتكلم ، واتجهت إليه الأنظار ، فقال :

« لقد علمتم أن كليياً كان لكم عراً ومجداً ، به سدنا ، وبسيفه
انتصرنا وعلت كلتنا . ولقد أكل الحسد قلب أعدائكم فلم يجدوا
لكم رزاً أشد عليكم من فهد كليب ، ولم يعرفوا جرحاً أوجع
فيكم من طعنة فؤاده . فهم إذا أصابوه لم يقصدوا إلا محكم ، ولم
يطمعوا من وراء مقتله إلا أن يسودوكم ، فوحق مناه وأوال ،
وحق السيف والرمح ، وحق المصاب الفاحع ، والظلم الموجه ،
لنأخذن ثأر كليب حتى لا يبقى في بكر موضع ثأر ، ولنأخذن بحقه
كاملاً ، حتى لا يبقى عضو منه أو جارحة لا ثأر لها ، بل لنأخذن
بثأر الشُّسع الذى كان يربط به نعله ، نقتل به عريراً منهم ،
وسريّاً من سراتهم » .

وكان الغضب قد بلغ منه عند ذلك مبلغ التوقد ، فاحمرّ وجهه
الجميل وتقبض ، ولملت عيناه لمعاناً وحشياً ، وتصلبت أعضاؤه وهو
يشير بيديه مهدداً . وسرب عدوى غضبه إلى الحاضرين ، فلاحت
على وجوههم علامٌ الثورة ، واكنست جباههم بظلال الدماء
ونظروا إليه وقد ملاهم العجب أن يكون هذا الثائر المتوثب عدىً

ابن ربيعة (المهلهل) ، صاحب الخمر ، المفتون بالنساء ، الذى لا يعرف إلا التغنى والتغزل فى قصيد الشعر .

ولم يشعر القوم وهم فى هذه الثورة بقدوم جماعة أقبلت عند ذلك ووقفت عند طرف الجمع لتسمع آخر مقالة المهلهل ، وتشهد الغضبة الشاملة التى عمت نادى تغلب فى تلك الليلة .

ولما حدث حدة الثورة تقدم الوافدون نحو مهلهل ومدوا إليه أيديهم بالتحية ، وقال كل منهم له كلمة تعزية ، ثم ذهبوا نحو أبى نويرة فرحب بهم وفسح لهم المجالس فى صدر المكان ، وعاد الهدوء بعد قليل إلا همسات بين الجالسين يُعَرِّف بعضهم بعضا بهؤلاء الوافدين .

وبعد قليل وقف أبو نويرة فأشار بيده إلى الجمع أنه يريد الكلام ، ثم قال كلمة رحب فيها بالمقبلين ، وشكر لهم سعيهم بالعزاء . ولما انتهى من ذلك صمت لحظة ثم نظر إلى قومه وأشار إلى كهل من الضيوف وقال : « بطل بنى بكر الحُرث بن عُبَاد » .

ففتطلعت الأنظار إلى الرجل الذى أشار إليه أبو نويرة ، وكان رجلا طويلا قد وخط الشيب لحيته ، ولكن قامته المعتدلة ، وبناء جسمه المتين ، واتزان حركاته وهدوءها كانت تنم عن أنه زعيم اعتاد أن يقود وأن يغامر ، وأن يأمر وأن يطاع . وبعد لحظة من

السكون قال أبو نيرة يخاطب ابن عباد : « إذا شئت يا أبا ضبعة »
فوقف الحارث متكئاً على رمح ، وتكلم وفي صوته رنة من
الحزن فقال : « يا أبناء العم من تغلب ! لقد علمت ما كان مما
لا حيلة فيه . وكان فقد كليب مصاباً جليلاً ، عمّنا معاشر بني
بكر كما عمكم ، وأصاب أفئدتنا كما أصاب أفئدتكم . وكنا نرجو
أن ينصف إخواننا بنو شبان من أنفسهم ، فيحققوا الدماء
ويحمدوا يران حرب يصيب فيها الرجل أخاه ، وتقطع فيها عین
المرء يسراه . ولكن بنى شبان لم ينصفوا ولم يعدلوا ، ولجّسوا
فى العناد وأصروا على البنى ، فلا حاجة بنا إلى نصرتهم ولا رغبة
فينا إلى مؤازرتهم ، فنحن بعد اليوم بمعزل ، وإن كنا لا نملك
أن نحاربهم معكم ، فلسنا بناصريهم عليكم ؛ ولهذا عولت على أن
أكسر سهامى وأززع الوتر عن قوسى ، وأسير بأهلى ومن أطاعنى
لأبعد عن هذه الفتنة ، ولعل إخواننا يجدون بعد النى هدى » .
ولما انتهى من مقاتله قعد إلى جوار أبى نيرة بين هممة
خافتة تم عن ارتياح وشكران .

وتعاقب بعد ذلك الخطباء من الوافدين ، بعضهم من قبائل
بكر الأخرى : بنى عجل وحنيفة ويشكر ، تعلن الانفضاض عن
إخوانهم بنى شبان أو الانتصار لتغلب ومؤازرتها ، وبعضهم من
فروع النمر بن قاسط ، جد بكر وتغلب الأعلى ، وقد جاءوا للنصرة
بنى أبيهم التغلبيين على بنى أبيهم البكرين الذين تبادوا فى البنى والظلم .

وهكذا صارت قبائل ربيعة كلها يدا واحدة تطالب بدم بطلها .
وأصبحت شيان في عزلة ، تستعد للمقاومة وحدها ، والدفاع عن
جريمة ولدها الثائر الباغي جساس بن مُرّة .

ولما هم المجتمعون بالانصراف بعد ذلك وقف عدى بن ربيعة
(المهلهل) في سكون ، وأشار بيده إليهم قائلاً :
— علمي رسلكم يا بني أبي !

فوقف القوم ينظرون إليه ، وكانوا عند ذلك أكثر إقبالا ،
وألسلس أسماعاً . فقال :

« لقد علمتم ما كنت عليه من ضلال وعي ، وانصراف إلى
اللهو والمجون . لا أنكر ذلك ، ولا حاجة بي إلى نكرانه .
ولست أدافع عن نفسي ولا أبرئها ، فقد كنت سادراً في ظل
كليب ، كفاني بشجاعته مؤونة الجد ، وصرفني جاهه إلى النعيم ،
ولكن قتله سلبني حمايته ، وأفقدني جاهه ، وعلى أن أقطع سائر
أيامي في قضاء دينه والوفاء له . وقد آليت منذ اليوم على نفسي ،
وعقدت بينكم موثقاً ، أن الخمر على حرام لا أذوقها ، والنساء على
حرمي لا أقربه ، وأن الطيب لن يمس جلدي ، والماء لا يبيل جسدي ،
حتى أثار لكليب ثاراً تطيب له نفوسكم » . ثم تردد
قليلاً وقال بعد صمت قصير : « وتطيب نفسي » .

ثم سار مطرقاً ، وسار القوم في إثره واجمين ، وقد تمثلت على
وجوههم غزيمة الجد ، وطلب الثأر .

كانت حرماً عنيفة ليس فيها بقيا ولا هواة . كانت تغلب
تتعقب شبان أينما تحل ، لا تترك لها مُتَنَفِّساً من الراحة ؛ فإذا
اتَّهت من وقعة وانحازت شبان إلى منزل بعيد لتداوى جراحها
وتصلح سلاحها وتحم خيولها ، فاجأها بنو عمها قبل أن تظمن
في مُقامها الحديد ، فيوقعون فيها وقعة جديدة أشد عليها وأنكأ
لجراحها . وكان المهلهل لا يفتأ يذكر أخاه في ليله ونهاره ويكيه
في شعره ، فلا تكاد قومه يعودون من القتال حتى يذمرهم ويحرضهم
فيثبون معه إلى حيث يمضى بهم ، وقد أسلموه قيادهم واتبعوه ،
لا يجادلونه في رأى ، ولا يعصوه في أمر ؛ فقد وجدوا فيه قائدهم
الذى بسبقهم إلى الصدر ، ويفرق لهم صفوف العدو ؛ يضرب
حائقاً ، ويندفع في غمار الجوع يقتل فيها ويمزقها . واشتعلت مع
تمادى الحروب أحقادهم ، وامتلاّت بالجرأة قلوبهم ؛ وألفوا النضال
كأنهم يجدون كل المتعة في مناظر دمائه ، وضجيج هيجائه .

وتحزحت شبان عن منازل اليمامة حتى بلغت أطراف القفر
المجذب ، تلتمس فيه النجاة من العدو الملح ؛ وكانت ترجو أن
يمحشع المهلهل عنها ، إذ نال منها ما نال في وقعاته العنيفة ، وحسبت

أنه يستوحش من تلك الفلوات ، فلجأت إليها على ما تتجشم فيها من قسوة الحياة .

ولكنها لم تلبث أن سمعت أن عدوها لا يزال يرحف إليها ، ويخترق في سبيله القدافد الوعرة التي ظنوها تحميهم وراءها .

وكان يوماً شديد الحر من أيام الصيف عند ما سمع مرة شيخ بنى شبان بأنه المهمل قادم في غزوة جديدة مغيراً بقومه تغلب وحلفائه من قبائل بكر والنمر بن قاسط ، الذين تألبوا عليهم واجتمعوا على مطالبتهم بثأر كليب . وكان بنو شبان عند ذلك نازلين بآخر منزل حلوا فيه بعد هراثمهم المتكررة ؛ فقد ضربوا خيامهم عند عين واردات في أطراف اليمامة ، بعد أن هجروا رياض نجد ووديانها الحصيبة منذ غلبهم عليها بنو عمهم في الوقائع الماضية : وقائع النهي وعنيزة والذنائب ، وقنعوا في وادي واردات بأقل المراعى كلاً ، وأشح العيون ماء ، وأشد البلاد حرّاً وإفقاراً ، ولكنهم كانوا لا يزالون يأبون النزول على حكم عدوهم ، وإن كان عدوهم قد صار إلى القلة ، واضمحل أمرهم وضاعت أموالهم في حروب تلك السنين الطويلة .

وقع بئاً الغارة الجديدة على الشيخ مرة وقع الصاعقة ، لأنه كان يعرف قلة عدد فرسان قومه وكثرة المتألبين عليهم من شبان القبائل الأخرى ؛ وزاد في شدة الأمر عليه أن سنوات الحرب

كانت سنوات جذب ذهبت بأكثر الأموال ، وأن السماء لم تجد في الشتاء النصرم بما يحى المراعى ويسمن البهـم ويدرّ الألبان ؛ وجعل يقلب وجوه الراى فيما هو صانع فى تلك الغارة ؛ أيقف مرة أخرى لعدوه القوى ، أم يستعد للزوح إلى فيافى الدهناء المخيفة ؟ وفيما هو فى ذلك الهم الشاغل أقبل عليه ولده جساس مسرعاً ، فرفع بصره إليه صامتاً وهو يعبث بلحيته البيضاء بأصابعه النحيلة فى شىء من الاضطراب ؛ فوقف جساس لحظة ينظر نحوه وقد امتلأ قلبه شفقة على ذلك الشيخ المتهم ، الذى ما زال يحمل هموم قومه تلك السنين الطويلة المليئة بالهزائم والمحن ؛ ولم يستطع أن يبعد عن فكره أنه السبب الأول فى إثارة تلك الفتن وإنزال تلك الكوارث بقومه ؛ ثم اقترب من الشيخ وجلس القرفصاء إلى جواره ، وقال بصوت خافت فيه رنة الرحمة : « أبى ! » .

فلم يُرد الشيخ أن يظهر شيئاً مما كان فى نفسه من الهم ، فأسرع مجيباً فى هدوء : « لعلك قد علمت ببأ تحرك القوم نحونا يا جساس » .

فقال جساس بصوت متردد : « هذا ما جئت أحدثك فيه » .

ومضت لحظة قصيرة عليهما فى صمت ، ثم قال جساس :

« لقد رأيت يا أبى ما جلبت على قومي من المصائب ، وقد

بدا لى اليوم عظم جرمى عليكم وشناعة مضرّتى لكم ؛ كـت

شاباً نزقاً لم أعرف مغبّة عملی وعاقبة تهوّرّی ، حتى مرت بنا هذه الأحداث وتطاوَلت علينا مدة الحرب هذه السنين ؛ فعلمت الحق بعد أن تفلّلت الأمر من الأیدی ، ورأيت أنى كنت ، كما وصفتنى يوم قتل كليب ، جايئاً مستئوماً منكوداً ؛ علمت أنى لم أحرز لقومى عِرةً بقتل كليب ، بل أذهبت عنهم عزّتهم ، وفرقت كلمتهم . وأفشبت فيهم الشك والويل .

فلم يجب الشيخ على قوله بكلمة ، بل طل مطرقاً وهو يعث بلحينه ؛ وساد الصمت حيناً آخر ثم استمر جساس قائلاً : « وقد عرمت يا أبى على أن أحمل جريرتى دونكم ، وأبذل نفسى فى فدائكم لعلى أتقع غلة ذلك الصديان الذى لا يرتوى من كل ما أراق من دمائنا » .

ورفع الشيخ رأسه مسرعاً وقد نغته ذلك الرأى الجديد وقال مندفعاً : « ماذا تقول يا جساس ؟ » .

فاستمر جساس يتكلم فى هدوء : « عرمت على أن أذهب إلى المهلهل وأسلم نفسى إليه ، لعله يقنع بى دونكم » .

فقال الشيخ وفى صوته غضبة ثائرة : « أبعد إذ كان ما كان ؟ أبعد أن قتل من ولدى وقومى من قتل فى سبيل الحفاظ والكرامة تسلم نفسك إليه ، وتلحق بـا المعرة التى كرهناها ، وتنزل بنا الصغار الذى أئيناه ؟ وما لذة الحياة بعد من ذهبوا ؟ وهل يحل

بنا بعد اليوم إلا مثل ما حل بقومنا بالأمس ؟ لقد أيننا أن نسلمك لهم ونحن أعزده ، فلن نسلمك لهم ولم تبق لنا عرة نحصر عليها . لس ينننا وبين المهلهل إلا الفناء » .

وكانت العريمة الصارمة الى في صوته لا تدع مجالاً للمراجعة ، فمطر حساس إلى وجهه المجدد لحطة ، وحقق قلبه حرباً لما رأى عليه من أثر الهم الذي يضمه في قلبه ولا يوح به ؛ وأحس أنه لا يرال الابن الصغير الضعيف أمام ذلك الأب القوى في ضعفه ، الفتى في شيخوخته ، ولم يستطع إلا أن يفض عينه حتى لا تقع في عين أبيه الصارم . وأطرق إلى جواره صامناً .

ومضت لحظة أخرى في صمت ، ثم استأنف جساس القول ، وكان في هذه المرة أكثر تردداً واضطراباً . قال : « إذا كنت يا أبي قد عزمت على المضي في هذه الحرب فلا أرى لك أن تبقى هاهنا » .

فقال الشيخ في هدوء وقد نظر إليه حائراً : « وإلى أين يذهب إذا لم نقم هاهنا ؟ لقد اضطربنا إلى هذا المقام اضطراباً ، ولم يبق لنا بعد هذا الوطن إلا الفياق القاطعة . ولن يكون لنا فيها إلا العذاب ثم الهلاك . وإذا كان ولا بد من الموت فليكن على ظهور الخيل والسيوف في أيدينا » .

فقال جساس وقد زاد اضطراباً وتردداً : « لقد بدا لي رأى

إن أحببت أن تسمعه .

فقال الشيخ ولا يزال فاتراً : « قل ما بدا لك يا ولدى .
قال جساس بصوت خافت : « نحمل نساءنا وأطفالنا وبسلسل
في وديان اليمامة حتى يبلغ منازل تغلب من وراء ظهورهم . فنتقوى بما
عندهم من أموال ، وإذا رجعوا إلينا بعد حين ليحموا حرمهم ،
قابلناهم وقد استرحنا وهم في جهد السفر الطويل » .

فحرك الشيخ في حركة ضجر في مجلسه وقال في لهجة
قاسية : « يذهب إلى منازل تغلب ؟ وماذا نجد هناك سوى النساء
والصبية ، أو كل ضعيف من الشيوخ والمرضى ؟ أو تريد إذن
أن تعيد علينا معركة فوق معركة ؟ ألا تذكر يوم قتل (ابن غنم)
المرأة التغلبية ؟ ماذا جر علينا قتل المرأة غير العار الذي لا يزال
لاحقاً بابن غنم وأهله وقومه ؟ دع عنك هذا ، فإنك إنما تنصر
عدوك بمثل هذا النفي . إننا لو فعلنا ذلك الذي تشير به لما زاد
علينا العرب إلا حفيظة ، وحسنا ما جلبنا على أنفسنا من عداوة
العرب » .

ولم يطل الحديث بعد ذلك بين الأب وابنه ، فقد أقبل همّام
ابن مرة مسرعاً على فرسه وهو يلوح بشمלתه في الهواء ، وفي
مظهره ما ينم عن الفزع من أمر خطير . فأسرع الشيخ ليقف
على قدميه وهو يترنح من ضعف الشيخوخة ، وساعده جساس

حتى وقف ، وسار بخطى متعثرة نحو ولده المقبل ، ينظر نحوه في
لهفة ، وجسّاس إلى جواره يُسندُه من تحت إبطه .
حتى إذا ما اقترب منه همام صاح به في لهفة : « هل من
جديد ؟ » .

فقال همام مسرعاً :

— القوم وراء هذه الكثبان .

وأشار إلى الرّبي الصفراء التي عند الأفق . ثم قال وهو يهمز
فرسه :

— هلمّ يا جسّاس . إملأ لنفسك قربة ماء والحق بي .
فإني ذاهب لأنذر الناس .

ولم ينتظر همام جواباً ، بل لف لثامه فوق أنفه وحمه ، ليتقي
به الهواء اللاّفح والحر المتقد ، ثم وثب نفرسه نحو منازل قومه .
فصاح الشيخ وهو ينظر في أثره : « ولدى ! » .

وسكت كأنه قد غصّ بريقه ، ووقف ينظر نحو التلال
البعيدة كأنه في حلم .

ووثب جسّاس إلى فرسه ، فما هي إلا لحظة حتى كان في أثر
أخيه . وغيبهما الغبار الثائر عن عيني الشيخ .

بعد ساعة كان فرسان بني شيبان يسرون نحو الكثبان
ليلاقوا العدو المغير ، وسيوفهم تبرق في أيديهم ، وأسنة رماحهم

تلع في ضوء الشمس الساطعة كأنها شرر منبعث من لبيب ،
والرياح الحارة تثير الرمال ، وتلفح الوجوه ، وتكاد تحنق الأنفاس .
ونظرُ مُرّة إليهم وهم سائرون ، فرآهم صفوفًا ضئيلة فوق خيول
ضامرة ، سرعوا إلى القتال وهم يعلمون أن العدو قد أقبل نحوهم
في عدده وعدته ، يريد أن يسناصل بقيتهم بعد أن أفنى منهم
الألوف في وقعة بعد وقعة . واسودّت الدنيا في عيني الشيخ عندما
تذكر أنه لم يبق له من قومه إلا هذه الحفّة القليلة ، ولم يبق
بيت من بيوت شيان إلا وقد نجح في زهرة شبابه وصفوة فرسانه ،
فرفع يده إلى عينه ومسح دمعة ترقرت فيها ، وقال كأنه يحدث
نفسه : « ألا ما أفلها من بقية ! لقد عشت حتى أرى ! فيا ليني ... »
ثم توقف عن إتمام قوله كأنه لم يتأ أن يدع نفسه تهادى في
هذه الخواطر اليائسة ، مثل تلك الساعة الخطيرة . وهر نفسه
ووقف ينظر بلهفة إلى الفضاء الفسيح حيث يترجح ميزان القضاء .
سارت الكتيبة الصغيرة حتى صارت في منبسط الأرض ؛
فوقفت تنظم صفوفها ، وترتب خطتها . فاختارهمام جماعة من
الفرسان ليكونوا معه طليعة ، واختار جساس جماعة أخرى
ليكونوا لهم ردءاً ، وأرسلت طائفة ثالثة مع عمرو بن السدوس
إلى ثنية وادي واردات لتكن للعدو ، وتخرج عليه إذا وجدت
الفرصة سانحة .

واتفق قادة شبان على أن يتقدم همام إلى العدو فيحاربه
ويبارر أطلاله ؛ حتى إذا التحم الجيشان واستحسّر القتال تظاهر
همام بالهريرة ، فيقف جساس بمن معه في وجه العدو المتقدم ،
حتى يتمكن همام ومن معه من العودة إلى المنسط الفسيح الذي
وراء الكتبان ، ليستريحوا ويشربوا من قَرَب ماء يصعونها عند
سفوح الكتبان ، ثم يتظاهر جساس بالانهزام متياسراً ، ويتقهقر
بجماعته إلى ناحية الكمين ؛ فإذا ما أوغل العدو وراءهم في السهل
وقصد إلى نحو منارل شبان لسبي من فيها من نساء وأطفال ،
وغنم ما بها من مال وأثاث ، خرج عليه كمين ابن السدوس فجأة
وعاد همام وجساس يكرّان عليه بجماعتهما ؛ فأحذونه وهو آمن
مشنت ، مشغل بجمع الأسلاب ، ويوقعون به هزيمة محققة
يستردون بها شرفهم ، ويتقمون لما سبق من مصابهم .

ولما تم تدبير هذه الخطة تقدم همام وقد حمل قربة من الماء
جعلها على عاتق فرسه ، وقال لأصحابه : « لا يس أحدكم أن
أمامه اليوم قتال مجهد في صحراء جرداء ، فليحمل كل منكم قربة ،
فإذا صرنا عند الكتبان جعلها في موضع يعرفه ، فإذا أحده
القتال قصدها فارتوى ثم عاد إلى قتاله نشيطاً ، فالיום لا يموت
إلا العطاش » .

ثم ركب فرسه وسار نحو الكتبان ، وأصحابه وراءه يُسوئون

سلاحهم ودروعهم ، وقد امتلأت قلوبهم عريّة وأنفة . وكانت تغلب لا تزال وراء الكُثبان تنتظر أمر المهلهل بالسير ، وهى تملأ الفصاء خيلاً ورجالا . وكانوا لا يظنون أن بنى شيبان يجروون على المسير إليهم ، فقد كانوا يعلمون أنهم صاروا فى قلة من العدد ، وجهد من طول الحرب ، يقيمون فى أرض قاحلة ، ويقاسون مرارة العيش فى وادٍ قفر ، وكان المهلهل يرى أن تلك الغارة لا محالة تأتى عليهم ، وتقضى على من بقى منهم . ولهذا لم يتعجل فى زحفه بل كان يؤثر المُقام فى مكانه حتى يَفْتُر الحر ، وتميل الشمس ، فيسطو عليهم سطوة لا يلبثون معها أن يتفرقوا ، فيقتل فيهم ما شاء حتى إذا أقبل الليل كان قد طواهم فى هزيمة قاضية .

كان المهلهل لا يزال فى حيمته يستظل حتى تميل الشمس عن كبد السماء . فإذا بكتيبة شببان تطلع من وراء الكُثبان وتهبط على فرسانه كما تحل العاصفة فجأة ، فاضطرب الجمع المحتشد ، وتواثبوا إلى خيولهم وتصايحوا ؛ يدعو بعضهم بعضاً ، وينادى قريبهم البعيد . فوجد هام فى ذلك الاضطراب فرصة فأنهزها ، وأهوى بجماعته القليلة على من لقيه من أدنى القوم ، فقتل فيهم مقتلة عظيمة ، حتى هم سرعان بنى تغلب بالانهزام ، ودفع المنهرم أخاه من ورائه ، وكادت المفاجأة تنتهى فى تغلب إلى نكبة كارثة .

وعند ذلك أقبل المهلهل من أقصى الميدان في سلاح تام ودرع ضافية ، واندفع إلى عدوه كأنه سهم اطلق من قوسه ، لا يتردد ولا يميل ، وهو يضرب بالسيف تارة ويطعن بالرمح أخرى ، فلا يصمد إلى فارس حتى يحدّله ، ولا يجالد بطلا حتى يصصره ؛ كأن صخرة تهوى حيث هوى ، وهو كلما ضرب فارساً صاح بصوت يُدوّى : « واكليباه ! » . فعرف شيبان الصّجة ، وعرفت أنه مهلهل بن ربيعة ، الذى آلى على نفسه ألا يرال دهره على أهته ، لا يزع حوشه ولا يصع درعه ولا ييصنه .

ووجد بنو تغلب عند ذلك متنفساً من الوقت للاستعداد ، فركبوا خيولهم سراعاً واجتمعوا من أطراف الفضاء خفافاً ، وعاد الذى كاد ينهرم ، واطمأن الذى كاد ينخلع ، وأحاطوا بكتيبة هام حتى كاد لا تحد ثلثة للفراو .

ولكن بنى شيبان ، وإن كانوا قلائل فى العدد ، كانوا من فرسان اعتادوا مقارعة الأبطال ، وطالت بهم مازلة الشجعان ، فما زالوا يتلقون الضربات بالدروع ، ويتواثبون فوق حيولهم كالسّعالى من الجن ، حتى استطاعوا أن يخرجوا من حلقة العدو ، وقد أوشكت أن تلتهم حولهم ، وأسرعوا فوق الكشبان منهزمين نحو الفضاء الفسيح الذى دونها . ولحقت بهم خيول تغلب غير مترددة ، وتدفقت وراءهم كأنها السيل ينحدر إلى بطن

الوادى . ولكن المهلهل بقى حيث كان ، فما كان مثله ليتبع منهرماً
فهو للقاء العدو المقبل ، وليس لاقتفاء المنهرم المدبر .
كان حساس عند ذلك راضئاً بمن معه وراء الكشبان ، فلم
رأى خيول تغلب تتدفق فوق الكشبان ، أسرع إليهم فوقف في
سبيلهم ، فعطف المغيرون عليه وتركوا هماماً ومن معه يمضون
في سبيلهم .

وقا تلّ جساس في جماعته قتال المستميت ، وكان الفصا
الرحب أرفق بهم ، وأطلق لحركاتهم ، فكانوا يفرون ثم يكرزون
ويحاورون عدوهم ثم يعودون إليه ، حتى حيل إلى بنى تغلب أنهم
يلاقون حشاً خبساً وعدداً عديداً ، وزاد هيبة الفئة القليلة و
قلوبهم فترددوا في لقاءها ، وتحاموا بطشها وقتالها . وعلا صجيرة
القتال وتجاوب الفضاء بأصوات الحديد ، فسمعها المهلهل وهو و
مكانه يستريح مما ناله من جهد القتال الأول ، فأسرع مبادراً فاعتل
الكثيب وأشرف على الفضاء ، فرأى كتيبة جساس تطحن قومه
في قتالها العنيف ، فأنحدر نحوها يصيح صيحته . فما سمعت تغلب
الضجة حتى اشتدت عزائمها فحملت حملة شديدة . ورأى جساس
أنه لن يستطيع الثبات أمام ذلك التيار الآتي ، فانهزم بجماة
متياسراً نحو جانب وادى (واردات) ، وتبعهم مهلهل يصيح
« واكليباه ! » .

سمع حساس الصيحة فعرف أن ذلك الفارس هو مهلهل الخفيف وعلى الدم في رأسه عندما تدكر من قتل من إخوانه ومن قومه ، وكان العطش قد أجهدته وطول القتال قد أجهضه ، ولكن الفيظ غلب عليه ، فأشار إلى فارسين قريبين منه أن ينحازا بمحاربتهم إلى جانب الوادي ، وعاد هو نحو عدوه مُحَنَقًا ، يطلب القتال الذي لا هوادة فيه .

وقف حساس وجهًا لوجه أمام عدوه الفاتك وناداه أن يُقبل عليه للنزال . فأقبل مهلهل نحوه كأنه يقذف نفسه قذفًا ، ووقف فرسان تغلب على مسافة منهما ليروا ما تنتهي إليه ماررة القرنيين . قال حساس صائحًا صيحة وحشية : « إلىَّ يا مهلهل ! أنا قاتل كليب ! أنا حساس بن مره إن أردت ثأرك » .

وما سمع المهلهل اسم حساس حتى اندفع نحوه مُحَنَقًا وعص بريقه من شدة الغضب ، فلم يجب إلا بصرة كادت تشق البيضة عن رأس حساس وتنفذ إلى دماغه .

فترَّح حساس لشدة الضربة ، ولكن البيضة دفعها عنه ، ثم تمالك نفسه بعد قليل وأهوى بسيفه نحو رأس حصمه فضربه ضربة أودع فيها ما في قلبه من حقد وغضب ، فتحول المهلهل عنها سريعًا ، فوقع الضربة على عنق الفرس فقدته ، ووقع الفرس كأنه جليود صخر .

ووثب المهلهل إلى الأرض حتى لا يقع تحت الفرس القتيل ،
ورمى سيفه عند ذلك وقبض على رمح الطويل وهره في يده حتى
ارتاح إلى قبضته ، ثم سدده إلى قلب جساس وأسرع فقذفه به .
وأدهشت هذه الحركة جساساً فلم بسنطع أن يأخذ رمحاً في
يده ، ولم يقدر على أن يبلغ المهلهل سيفه وهو بعيد عنه ، فلما
رآه مسرعاً نحوه بالرمح البارق تحول عن فرسه إلى الأرض كالنمر
الأرقط ، فلم تضب الصربة إلا حاب درعه ، ولكنها كانت صربة
عاضب محنق وزلزله ، وكادت تلقيه صريعاً .

في تلك اللحظة سمعت صيحة عالية من وراء مهلهل ، فالتفت
فرسان تغلب إلى جهتها ، فإذا كمين ابن السدوس يهوى نحوهم
من حاب الوادى يريد أخذهم من وراء ، وكان مهلهل على وشك
أن ينبع ضربته بأحرى يقصى بها على حصمه ، فلما رأى الكمين
مقللاً نحوه أسرع إلى فرس قتل فارسها ، فوثب عليها واتحاه
مسرعاً نحو العدو المقبل ، وهو يقول في عيظ : « لهف نفسى على
فوت جساس ! » .

وما هو إلا قليل حتى اصطدمت الكتيبة المقبلة بمهلهل ومن
معه ، وقد أقبلت بعد راحة من القتال ، فكانت على قلة عددها
ثقيلة الوطأة ، شديدة الضربة .

وعادت في الوقت عينه جماعة همام بعد أن رويت واستراحت

وعادت معها كتيبة جساس بعد أن تنفس .

والتحم عامة جيش شبان بعامة جيش تغلب ، وعلا القتام
وعم الاضطراب ، واختلط الجمعان وفشا في الحابسين القتل ، وتعالى
فيهما الصجيج ، وتردد النصر بينهما ، فتارة تنحاز تغلب إلى
الكثبان ، وتارة تنحاز شبان إلى حاب الوادى . وتفرق
المقاتلون ، فنهزم يتبعه حصمه ، وراكص يلجأ إلى قومه ،
ومنعب يلتمس صخرة يستريح عندها ، وطامئ يطل شربة يرتوى
بها ؛ ومالت الشمس إلى الغروب وميران القتال لا يزال مترججاً
تارة يميل مع شبان وأخرى يميل إلى تغلب . وفي أثناء ذلك الهرج
الشامل علب صيحة من جاب الكثيب حملتها الرياح الثائرة مع
رمالها ، وكان يمتدح فيها ريب الفرع الوحشى بجلجلة اضطراب
وورع : « قُتِلَ همام بن مره ! قتل سيد شبان ! » .

وسمع المقاتلون تلك الصيحة وهم لا يعرفون من أين أقبلت .
فوقفوا في مواضعهم حيناً يتلفتون في دهشة . فهل هى نمص حدع
الحروب ، يقذف بها أحد المتحاربين يقصد من ورائها قصداً ؟
أم هو فارس من فرسان تغلب أصاب قريناً من فرسان شبان
يحسبه سيد القوم فصاح تلك الصيحة وهو واهم قد اشتبه
الأمر عليه ؟ أو هو رجل مدع من بنى تغلب يريد أن يباهى لحظة
بأنه قد هدد شبان بمقتل سيدها لكي نحدث الناس باسمه حيناً

فيرضى غموره حتى يظهر الحق بعد لآى ، فيكون قد أصاب من جلال البطولة بصيبا مخلصا ؟ أم قد فترت تغلب عن القتال وأعيائها ثبات شيان فصاح رُحالها تلك الصيحة لكي يتستر وراءها المهلهل ويأمر رجاله أن يكفوا عن القتال ، مكتفين من ذلك اليوم بما نالهم من جراح دامية في النضال العيف ؟ ترددت كل هذه الخواطر في قلوب مختلفة من شيان وهم وقوف ينلفتون لعلهم يرون بطلهم بينهم فيعرفوه بدرعه المعلمة وفرسه الكمين النبيل . وأصاخوا بالأسماع لعلهم يسمعون صوتا يرتفع تكذيب الصيحة الخبيثة فيطمئنوا على فارسهم النازل ، ويعودوا الى مصادمة عدوهم فيزيلوه عن منازلهم بعد أن يوجعوه ضربا وقتلا . ولكنهم لم يسمعوا شيئا ، بل سمعوا الصيحة الأولى تتردد في قسوة كآنها من صوت القضاء .

وأقبل بعضهم على بعض يساءلون : من يكون ذلك الصائح وهل هو ممن يعرفون من فرسان تغلب ؟
وعند ذلك ترددت الصيحة . وكأت في هذه المره صرخة رددتها صفوف العدو في فرح : « قتل سيد شيان ! » .

فلم تلبث صفوفهم أن تفرقت ، ولم يلبث أبطالهم أن تصعضت عزائمهم . وتردد الفرسان لحظة ، ثم جرفهم الخوف الشامل ، وغلبهم الفرع المفاجئ ، فركضوا خيولهم يطلبون مضارب الخيام

لعلهم يقدرّون على حماية الحُرْم ، فيستطيعوا النجاة بها من العدو المنتصر .

ونظرت تغلب إلى مهلهل ينتظرون ما يقول بعد سماع ذلك السأ الخطير ، فقد أجهدهم القتال ، وما كان مقتل مثل همام بالنصر اليسير . فهل يسير بهم المهلهل بعد هذا النأ حتى يحجر على بني شيبان وهم في دهشتهم واضطرابهم ؟ أم يأمرهم بإيقاف الحرب والاكتفاء من ذلك اليوم بقتل همام ؟

وقف المهلهل صامتا لحظة بعد أن سمع الصيحة ، وكان لا يزال في سلاحه ودروعه كقطعة من الحديد ، وراه الفرسان يركر رموه في الركاب ويسد عليه رأسه ويتنفس نفسا عميقا ، ثم رأوه يرفع رأسه ويشير إليهم ويقول بصوت خافت : « ليهنكم النصر أيها الفرسان ، وحسبكم اليوم ما كان ! » .

في تلك الليلة كان مهلهل يحول في أنحاء الوادي يسير في أثر ذلك الفتى الضئيل الذي قتل هماما ، حتى إذا بلغ الفنى الحلاب الأدنى من الكشنان ، وقف وأشار إلى جسم ممدد على الأرض مائل إلى جنبه وقد احتلطت حوله الرمال بالدماء ، يمد يده نحو قرية ماء في حفرة بين الرمال إلى جواره .

وقال الفتى في لهجة المباحاة مشيراً إلى ثنية وراء الكثيب :
« هناك انتظرت حتى اشتد به العطش ، فأتى ليرتوى من

قرته التي جعلها من جاب من الرمال . فلما جلس ليسترخ ويشرب تغفلته وطعنته ، وكانت طعنة قاضية » .

فنظر مهلهل نظرة ساهمة إلى الجثة الممدودة وإلى وجهها المعفر وغاب حيناً في صمت وتفكير ، ثم احتلجت شفتاه قليلاً ، ونظر إلى الفتى وقال :

— ألا تعرف فصل همام عليك يا ناشره ؟

فقال الفتى :

— نعم . لقد أخبرتني أمي .

وكان ناشرة طفلاً من تغلب ولدته امرأة فقيرة أراد أن تنده بعد ولادته خوفاً من الفقر ، خشية ألا تجد طعاماً يكفيها مع ولدها فأحسن همام إليها وأعطاهها ناقة ولوداً تطعم من لبنها ، وضم الطفل إليه ليعيش مع أهله . حتى شب ناشره وعرف أنه تغلبى وذهب إلى قومه تغلب ليحارب معهم في واقعة واردات .

وبعد صمت قصير أردف الفتى قائلاً :

— لم أعرف في شيباننا أكرم منه لأقتله في ثأر كليب .

فحول المهلهل نظره عن الفتى ، ثم نظر إلى القتيل الطريح كأنه يريد أن يملأ منه عييه ، ثم قال والدموع تجري من مآقيه :
« أي همام ! يارب ليلة جمعتنا على المودّة ، ويارب حديث تبادلناه على الصفاء . إن الثأر حجب إلى قتلك ، فأت كف .

كريم ، ولكن قلبي ينازعني إليك يا صديق الشاب . وإن كندی
لحرى عليك يا حليل الصّبا . ما قتل بعد كليب أعر على منك ،
وما بقى بعدكما في الحَيَّين من يُعقد عليه الخير » .

ثم التفت إلى الشاب وقال في وحوم :

— اذهب يا ناشره وعيّ وجهك عى .

ومضى نحو معسكر الحش ، وترك الشاب يشتدوها حائر
الفؤاد .

في تلك الليلة نفسها كان مهلهل سير في طليلة قومه عائدين
إلى أروهم ؛ فقد هره قتل همام فلم يدع له رعة في معاودة القتال .

مصن السموات تتوالى ، والحرب لا تزال دائره بين بنى العم
المتناضلين إلى الفناء . وشب الصغير في أثنائها وفي الكبير ، وبيع
من الفرسان جيل في إثر حيل ، ولكن المهلهل لم تهدأ تأثيرته ولم
يرتو بعد مما أسال من الدماء .

وتوالى المصائب على بنى شيان بعد وقعة واردة ، كما
نوال عليها قبل تلك الوقعة ؛ قتل همام بن مرة في أثناء المعركة ،
ثم قتل عمرو بن السدوس وقت الهزيمة ؛ ولم يلبث سو شيان إلا
قليلا بعد ذلك حتى رُوِّعوا بمقتل رئيسهم الحديد والبقية الباقية
من قادتهم وأبطالهم ، وأحرأبناء مرة ، حساس فاتل كليب . قتل
حساس ولكن لم يقتل في ميدان حرب ، ولم تطعنه يد عربية
ترصدت له ، بل أحاطت بمقتله روعة خلعت عليه لوياً قائماً من
العداحة ؛ فما كان قاتله سوى ابن أخته جلييلة ، الهجرس بن
كليب التغلبي .

كان الهجرس جليلاً عند مقتل أبيه ، ثم ولدته أمه وهي بن
طهراني قومها بنى شيان ، وشبَّ فيهم ونما ، حتى أصبح فتى
الفتيان وزين الشباب : فتى طويل القامة ، عريض المنكبين ، جميل

الوجه ، ولكنه كان مثل أبيه تحالط جماله قسوة من عبسة بين عيين تلمعان لمعان وِيرِدِ السيف . وكان قليل الكلام ، فإذا تكلم عذب قوله في السمع ، ووقع في النفس ، عظيم المروءة ، يسرع إلى النجدة ، ولا يبالي المخاطر . فاتَّخَذَهُ حدهُ مُرَّة أَيْسَا ، يفيض من بهجة شبابه على شيخوخته التي تطاولت به ، ويرقُّه بمنظره عن الآلام التي توالى عليه ، مع تطاول السنين ، وجعله خاله جَسَّاس في أهله ولدا ، وزوجه ابنته الجميلة سعاد ، وكأنه أراد بذلك أن يكفِّر عن ماضى جريمته في قتل أبيه . وكانوا يسمونه ابن حساس حتى لا تدخل الأحقاد إلى قلبه ، إذا عرف أنه ابن كليب .

ولكن مكان الحجرس في شيبان غشينه عشاوة من المموم ، منذ قتل همام بن مره ؛ ذلك بأن ناشرة قاتل همام كان فتى تغليبا ، أحسن همام إليه وعطف عليه ، بل حفظ حياته وليداً ، ورعاه طفلاً وفتى ، حتى إذا ما بلغ مبلغ الرجال لم يذكر إلا أنه من تغلب أعداء شيبان ، فقتل الرجل الذي أحسن إليه ، وعذر بمن كان حقه أكبر من حق الأبوة عليه .

فأخذ جماعة من الشبان يُذِيعُونَ المطاعن على الحجرس ، ويحرضون على إخراجه من بينهم حتى لا يصيبهم بمثل ما أصابهم به ناشرة . وسمع الحجرس ما يقولون فيه ، فداخلته الوسواس والشكوك ، واشتعلت فيه الكبرياء والأنفة ، وضاق صدره بالإقامة

في قوم يقول قائلهم عنه : إنه لس منهم . فما زال بأمه جليلة حتى أخبرته بقصة أبيه ، بعد أن هدها بأن يسير في الأرض فلا تدري أين يُقيم ، ولا أى البلاد تشتمل عليه .

وما علم قصته من أمه ، حتى أطلمت الدنيا في عييه ، ودارب به الأرض ، وحرّاً صَعِقا ؛ ولم يفق من غششته حتى كان قلبه قد استقر على أن ينتقم لأبيه ، وأن يبعد عن أعداء قومه ، ويلحق بأعمامه ودوى صله ؛ وجعل يدبر الحيل ، ويفتتم الفرص ، حتى حقق غرضه وأنفذ قصده ؛ فطعن خاله جساساً وأسرع هارباً إلى عمه المهلهل في منازل تغلب .

فكان هذا الحدث تنمة الأحداث ، وقاصم الظهور ، ولم يبق لشيان بعده من نأس ، فقد ذهب بذهاب حساس آخر من نقي من أبطالها ، ورهيض جناحها ، وكُسِر شوكتها .

وبقى الشيخ مرة في شيدان وحيدا ، قد أحت طهره السنون المتطاولة ، وعصفت به أحداثها المتعاقبة ، واجتمع عليهم مصاب الهزيمة ، وحرن فَنَقَد الأعراء من أنثائه ومن فرمان شيان الذين قصفتهم الحروب واحداً بعد واحد ، وتركتهم مغفرين في الوديان تنهشهم السباع وجوارح الطير . فتضعضت نفسه ، وانطفأت فيه سورة الكبرياء التي كانت من قبل تدفعه وتجمع به . فلم يجد بداً من أن يسعى إلى مصالحة المهلهل ، والتذلل له حتى

يحفظ على قومه البقية الضئيلة التي بقيت لهم من ذرارى المستقبل .
كان لا بد له من مصالحة المهلهل ، إذا شاء أن يبقى فى شبان باق
من هذه الصبية الصغيرة ، التي كان يراها تسعى حوله ، وليس فيهم
إلا من فقد أباه ، وعمه وإخوته . فإن شبان لم يبق فيها إلا
هؤلاء الصغفاء ، بعد أن أفنى المهلهل فى وقائعه كل من استطاع
الحرب من كهول وشبان . ولم يجد الشيخ مرة من يلجأ إليه إلا
الحرث بن عباد سيد بنى ثعلبة ، ذلك الذى اعتزل الحرب منذ أولها
ولم يرض أن يشارك قومه البكرين فى ميادينها ، لأنه لم يرض عن
ظلمهم وبغيهم فى قتل كليب ، وإصرارهم على الظلم إذ أبوا أن يرضوا
بى عمهم التغلبين فى دمه الكريم . فاعتزل منذ ذلك الحين وترك
البكرين يقاسون عاقبة ظلمهم ، ويلاقون صدمات المهلهل
العنيفة وحدهم .

لأ مرة إلى الحرث بن عباد وخضع له يستلين قلبه ، على تلك
البقية الضعيفة من شبان ، وطلب إليه أن يبعث إلى المهلهل
فيرجوه أن يقنع بما أصاب من دماء نكر ، وأن يمنّ عليه بالصلح
فقد صار هامة يومه أو غده ، فهو لا يحرص على شئ إلا أن يدع
لهؤلاء الصبية من شبان فرصة الحياة . فرق له الحرث ولم يشأ أن
يزيد آلامه بلوم ، أو أن يذكره بما مضى من بغيه وكبريائه .
وخف إلى معوته مبادراً ، فأرسل إلى المهلهل وفداً يرجوه أن

يعود إلى مسألة بنى عمه بعد أن أصاب منهم ما أصاب في ثأره .
وأراد أن يسئل نقيّة الحقد من قلب المهلهل ، فعث إليه مع الرسل
ولده بجيرا بكتاب يستعطف قلبه فقال له : « إني مرسل إليك
ولدى بجيرا وهو عندى حبيب ، وفوضت إليك الأمر فيه ، فإن
لم تكن رضت إلى اليوم بمن قتلت من شيبان فدونك انى جعلت
فداءك ! فإما قتلته بأحيك الكريم فهو كفء له ، وإما أطلقته
متكرماً إذا رأيت أن تمنّ به علىّ . وأنا في الحالين راض مادمت
تعود بعد ذلك إلى السلام ، وترضى بإصلاح ذات البين ، فقد مضى
من الحيين في هذه الحروب الطويلة من كان بقاؤه حيراً لنا ولكم » .
ومضت أيام بعد سير الوفد إلى المهلهل ، وكان مرة ينتظر
عودتهم في قلق ولهفة ، وقد ملك عليه الحزن قلبه ، فلم يدع فيه
مكافاة لتجمل أو اطمئنان .

وكان في يوم من هذه الأيام جالساً في فناء منزله ، وإلى جانبه
صديق له من بنى عمومته ، يحاول أن يعريه ويخفف عنه ، ويبعث
في قلبه الرجاء ، ولكن اليأس كان يملك على الشيخ كل أمره ،
فكان لا يتمالك نفسه من البكاء ، فقال له صاحبه :

— أما تتجمل بالصبر يا أبا الحرث ؟

فقال الشيخ والحسرة تغلبه : ماذا بقى لى في الحياة يا أبا مالك
حتى أتجمل وأصبر ؟ إن هـما إلا يومان أقضيهما في البكاء ثم أمضى .

فقال أبو مالك عاطفا : « لئن بكيت يا أبا الحرث لقد حق لك البكاء . ولكننا كنا تنأسى بصبرك وتثبت بثباتك . فلسنا نملك اليوم معك إلا الرثاء لأنفسنا لما فقدنا من أسوتك » .

فقال مرة متنهدا : « واحر قلباه ! لم يبق لى أحد من ولدى . لم يبق لى إلا هذه الفتية الصغار من أبنائهم ، الذين حكم الدهر على أن أعبس لأراهم حولى أيتاماً ضعافا . . . واحر قلباه يا همام ! واحر قلباه يا جساس ! » .

ثم أخذ يبكي بكاء مرأاً ، وصمت جلوسه ينظر إليه فى حزن عميق . وأقبلت عند ذلك امرأة تسير فى بطاء ، تتعثر بأذيال ثوبها الأسود ، وتمسح عينيها بطرف حمارها الذى أسدلته على وجهها ، تخفى تحته عبراتها ، فلما صارت إلى جوار الشيخ ، وقفت صامتة تنظر إليه لحظة ثم غلبتها العبرة ، فجعلت تنسج ووضعت كفيها على عينيها .

فتبته الشيخ إليها عند ما سمع شهقاتها ، فنظر إليها بعينيه الكليلتين ، وقال بصوت مترجى فيه بحه البكاء بهزة الإشفاق :
— جلييلة ؟ جلييلة ؟ .

فقال المرأة من بين شهقاتها : « نعم جلييلة يا أبى . جلييلة الشقية يا أبى ! » .

فد الشيخ إليها يديه المرتعشتين وقال بصوت متهدج : « تعالى .

يا ابنتي ، اجلسي إلى جوارى ، وامزجي دمعك بدمعى فقد أصبحت
مثلك لا أستطيع إلا البكاء » . ثم جعل ينشج مثلها نشيجاً مرأ .
فجلست جليلة إلى جنبه ، ووضعت يدها على رأسه وأسندت
رأسها باليد الأخرى وأخذت تشاركه فى البكاء ، فلم يقو أبو مالك
على البقاء معهما فقام عنهما ، وذهب وهو يرفع يده إلى عينيه
ليمسح دمعة ، وواساه لم يستطع أن يمنعها . ومضت على الوالد وابنته
ساعة فى البكاء ، وكان الدمع قد أزال عنهما بعض وجوههما وفك
من عقدة الحديث بينهما ، فالتفت مرة إلى جليلة قائلاً : « كفكفى
دمعك يا بنيتى ! » .

فمسحت المرأة بكفها على ظهر أبيها وقالت : « لست أدري
يا أبى ماذا أقول لك . لم أجد فى نساء العرب من هى أشد منى
نحساً ، ولا أبلغ منى شقاء ، حتى لكان الزمان لم يجد سوى
غرضاً ! » .

فد الشيخ يده إليها وأخذ يدها بعطف ولكنه لم يتكلم .
فمضت المرأة تقول ، ولا تزال تنشج بين كلماتها : « لم يكف
هذا الزمان ما أصابنى بقتل زوجى وجميعتى بإخوتى وأنساء إخوتى
وأعمامى ؛ فأبى إلا أن يجعلنى دائماً بين القاتل والمقتول ، ويقف بينى
أبدًا بين السنان الطاعن والقلب الطمون . قتل زوجى وكان قاتله
أخى ، ثم قتل إخوتى وقومى فى ثار صاحبي ، فكان الانتقام له

بيتر أعضائي وتقطع أوصالي ، ثم حتم على أن يكبر ولدى الهجرس
بين ظهرائي قوم أبي ، وهو يحمل في دماؤه العداوة لهم ، ويضم
بين جنبيه قلباً يطالبه بالثأر منهم ، حتى انتهى أمره إلى ما انتهى
إليه من فجيعتي بآخر إخوتي الذي أكرمه ورباه ، وزوجه بابنته
وواساء بنفسه ، ثم سار إلى قومه ليشاركهم في حربهم على قومي ،
فقلبي عليه يتحرق ومنه يتمزق ، إن أصاب أصابني ، وإن أصيب
أنكسني . واحر قلباه ! وأين الموت مني يا أبتاه ؟ .

وكان لقول جلييلة عند الشيخ أثر أبلغ من أثر التعزية ، فجف
دمعه ، وسكن نشيجه ، وهدأت أنفاسه منذ وجد مصاب ابنته
أفدح من مصابه ، ورآها أجدر منه بالمواساة وأحق بالرحمة .

ورفع بصره الكليل إليها ينظر في وجهها ، فاعترضته سحابة
من الظلمة تغشاه ، ولكنه استطاع مع ذلك أن يدرك مقدار ما
أصاب ابنته الجميلة من تغير وتبدل . لقد ألهمته الهموم كل تلك
السنوات عن أن يملأ عينيه منها ، ولم يلحظ فعل السنين فيها ،
فلما رآها عند ذلك رأى امرأة ناحلة شاحبة : وجه علتة الغضون ،
وبشرة تكشمت ، وعود ضئيل ، ونظر كليل ، وجسم متهدم ،
ونفس يفيض منها الحزن واليأس ؛ فنسى حزنه في اللحظة ، وجعل
يحاول التخفيف عنها ، وغاض دمه وأخذ يعمل على تجفيف
دمعها . قال : « لقد مضى دهر على قتله كليب ، ومضى بعده من

الأعزّاء من سلکوا سبيل الماضين قبلهم . وهل في الحياة بقاء
يا ابنتي ؟ ولئن كان مصاب جساس حديثاً ، يصب القلب لقرب
عهده ؛ فإن حزني عليه أذهلني عما كان يلبق بي ، ولم يكن
الهجرس في قتله يا ابنتي إلا أحد العرب يثار لأبيه ، ولعل هذا
المصاب يكون آخر الدماء ، ولعل ذلك الضَّبَّعَان العاسي مهلهل
ابن ربيعة يجد في قتل جساس ما يروى ظمأه ، ويكفيه من تأرّه .
فوقعت كلمات الشيخ في قلب جليلة موقع الدهن على
قرحة الحريق .

مسحت دموعها وخفت شدة نسيجها ، وقالت وهي أقل
يأساً : « وبماذا أجاب المهلهل على رسالتك يا أبي ؟ » .

فقال الشيخ بعد صمت قصير : « لعل الرسل يعودون اليوم .
لقد كان موعدهم أمس ولكنهم لم يعودوا » .

وهمت جليلة أن تستمر في حديثها ، ولكن أبا مالك أقبل
عند ذلك مسرعاً نحو الشيخ ، فعلمت أنه يريد التحدث إليه .
فقامت وذهبت نحو الخيام ، وقد أسدلت خمارها على وجهها ، ولا
تزال عينها تبضان .

وقف الرجل عند الشيخ لحظة ثم قال بعد تردد قصير : « لقد
عاد الرسل إلى الحرث بن عباد » .

فرفع الشيخ رأسه بحركة سريعة ، وقال بلهفة : « وما خبرهم ؟ »

فقال الرجل بصوت أجش مخيف : « كان رد مهمل
قتل بجير » .

فنهض الشيخ يتحامل ولا يقوى على النهوض ، وأسنده
صاحبه حتى وقف على رجليه مترنحاً ، ثم قال في فزع ويأس :
« قتل بجير ؟ قتل بجير بن الحرث ؟ » .

ولم ينتظر جواباً على سؤاله ، بل سار مضطرب الخطوات ،
وأبو مالك يسنده من ذراعه وقصدا نحو خيام الحرث بن عباد .

كان الحرث بن عباد في فناء خيمته عند ما جاء الوفد إلى الحى عائدين من رحلتهم إلى المهلهل بن ربيعة . وكانت زوجته أم الأغر ابنة ربيعة أخت كليب والمهلهل قاعدة عند أطراف الخيام ، تنتظر كعادتها كل يوم عودة الوفد لكي ترى ابنها الحبيب عائداً معهم . فإنها أحست منذ أرسله زوجها أن فلذة كبدها يسير مع ذلك الوفد متعرضاً للهلاك . كانت أم الأغر تعرف أخاها المهلهل ، وكانت تحس أن الرحم لن تلين قلبه ولن تعطفه على ولدها الحبيب ؛ لأن دم كليب قد طمس على قلبه ، فلم يبق فيه محلاً لرحمة ولا مودة . ولما رأت الرسل مقبلين وخدمهم ، أحس قلبها بما كان كأنها شهدت بهيئتها ، فقامت مسرعة تسأل في لطفة عن ولدها سؤال الواله المشدوه ، فأطرق الرسل ومضوا في سبيلهم نحو خيمة زوجها صامتين ولم تقو ألسنتهم على النطق أمام الأم الثكلى . فاشتعل قلب المرأة وصاحت في لوعة ، وولوت تنوح في حرقه ، وسمعتها نساء الحى فأقبلن نحوها سراعا وأجبنها بالمويل حتى اشتعل الحى كله بالصياح والبكاء .

وقام الحرث مسرعاً ليتعرف مبعث الضجة المنتشرة ، فلما رأى الرسل عائدين وخدمهم وليس فيهم بحير أدرك ما كان ، ولكنه

ملك نفسه وكبت ما في قلبه . وذهب بين الخيام يهدد ويسب ويؤنب وينهى ، واتجه إلى امرأته وقال لها عابساً بصوت كهدير الفحل : « يا أم الأعر . لا أرين إحداكن تبكي أو تصيح ، ولا أسمعن منكن صوب نحيب أو عديد ، فوحق مناة إن ابني لنعم القتل . كافأ خاله وأطفاً ثأره ، وأنا بقتله راض . وليس من قومي بنى قيس بن ثعلبة من هو أكثر منه يمنا ولا أكرم مقتلاً . فإنه قد أصلح بين ابني وائل وحقن ما بقي من دماءهم » .

نخمدت الأصوات من رهبة السيد الصارم إلا نشيج الأم الثا كل وهي تحاول كتمان صوتها طاعة لزوجها ، وتأبى حرارة كبدها أن تطيع . فانصرف الحُرث إلى الرسل ، ومضى بهم إلى فنائه ، ليسألهم عن جواب كتابه . فاتجه إلى كبير الوفد وقال هادئاً : « ماذا قال المهلهل يا أبا ضبيعة ؟ » .

فوقف أبو ضبيعة حيناً صامتاً ، وكان قصيراً دميماً . فنظر إليه الحُرث وقال في شيء من الحنق : « قل جوابك أيها الرجل » . فاقترب الرجل من الحُرث كأنه يريد أن يهمس في أذنه ، ولكنه لم يقدر على أن يبلغ كتفه ، فتردد وبق مطرقاً . فعرف الحُرث أنه لا يريد أن يتكلم في ملأ بنى ثعلبة ، فجذبه من ذراعه في شيء من العنف حتى تنحى به إلى جانب وقال غاضباً : « تكلم يا جحدر أجبنى بما قال المهلهل . قل ولا تخف من قوله شيئاً فلني

يبلغ من القسوة مثل قتل ولدى . هل رضى المهلهل بدم بجير ؟ «
 فنظر جحدر إلى الأرض وقال بصوت خافت : « ماذا أقول
 لك ؟ إذا شئت إيجازاً قلت لك إنه قتل بجيرا ولم يرو به غلته » .
 فصر الحُرث على أضراسه وقال للرجل : « إذن فلتحمل إلى
 أذنى كل ما كان منه . قل ولا تدع أمراً إلا وصفته » .

فأخذ جحدر يَص على الحُرث ما كان من المهلهل منذ ذهب
 الوفد إليه ، وجعل يفصل له وصف ما رأى من عنفه وسوء رده ،
 حتى بلغ وصف ما كان منه عند ما رأى بجيرا وسأله عن اسمه .
 فأغمض الحُرث عيبيه وتنفس نفساً عميقاً وقال لجحدر :

« دع ذلك الحديث ولا تطل فيه . لقد قتله » .

فنظر إليه جحدر متردداً وأمسك عن الكلام لحظة ، فصاح
 به الحُرث قللاً :

« امض ! امض في حديثك . أليس قد قتله ؟ » .

فقال جحدر وهو مطروق : « لقد وددت أننى لم أشهد ذلك
 الأمر ولم أَسع فيه . فإن تلك الصورة لا تزال ماثلة أمام عيني
 لا تفارقنى في سير ولا في إقامة ، ولا تبعد في ليل ولا في نهار .
 ولو كانت دماء تغلب تملأ البحار التى تحيط بالأرض ما حسبتها
 تروى غليل بنى ثعلبة . لقد قتله وهو يقول : بؤ بشسع
 فعل كليب ! » .

فارتد الحُرث إلى الوراء خطوة ، ونظر إلى محدثه وقد قلّصت عضلات وجهه وزوى حاجبيه وصاح بصوت أجش : « ماذا قلت؟ شسع نمل كليب ؟ » :

فهر جحدر رأسه ونظر إلى الأرض وهو يقول في حرن : « نعم بشسع نمل كليب » .

فصاح الحُرث : « ألم يكن في تغلب رحال ؟ ألم يكن في تغلب رجال ؟ » .

فقال جحدر : « كان امرؤ القيس بن أبان يحاول أن يردّه فلم يستطع . لقد بالغ في النصيح والرجاء ، ولكن صوته غرق في العاصفة الهوجاء » .

فرفع الحُرث يده مقبوضة فوق رأسه وعض على نواجذه وتنفس نفساً مضطرباً كأنه يختنق ثم قال : « ويل الداعر من غدره ! يا ويل زير النساء ! » . ثم سار مسرعاً نحو مضارب خيامه يهرول في اضطراب وقلبه يحترق من الغيظ . وكان في سيره يبعث ألفاظاً متقطعة كأنه يخاطب نفسه ، ويتبع كل لفظ منها آهة مبحوحة ، وكان جحدر والوفد يسرون وراءه حتى إذا اقترب من منازلهم نظر وراءه إلى جحدر وقال في صرخة مكتومة : « لقد بر الخبيث بعهدده يوم قال إنه لن يدع شيئاً لكليب حتى ينتقم له ، حتى الشّسع الذي كان يربط به نعله . فكان ولدى قتيل ذلك الشّسع » .

ثم ضحك ضحكة خفيفة حتى ظن جحدر أن الرجل قد جن من وقع مصابه .

فلما صار بين خيامه وقف وصاح ينادى عبيد كانا في رحبة الحى وقال بصوت ثائر غاضب : « قَرِّبَا مربوط النعمة منى ! »

ثم ذهب إلى خيمته وغاب لحظة وخرج ورمحه في يده وهو يهزه هراً عنيفاً ويشمر كمّ ثوبه عن ذراعه . وصاح بصوت يُدوى : قَرِّبَا مربوط النعمة منى لَقِحت حرب وائل عن حيال ثم وقف وركز رمحه في الرمال وقد غلبه الغضب وامتزج في قلبه حقد الموتور بحزن الأب المفجوع ، ونظر فرأى امرأته جالسة في جاب الخيمة تبكي وتحاول إخفاء صوتها ، ونظرت إليه بعيدها المحمرتين فلما رأت ما على مظهره من أثر الغضب قامت نحوه متمجبة حتى اقتربت منه كأنها تحاول أن تسأله عما غيره . فنظر إليها ثم نظر إلى جحدر وصاح كأنه يخاطبه :

قل لأم الأغرتبك بجيرا حيل بين الرجال والأموال
فلعمري لأبكينُ بجيرا ما أتى الماء من رؤوس الجبال
لهفَ نفسى على بجير لماذا جالت الخيل يوم حرب عضال
قتلوه بشسع نعل كليب إن قتل الكريم بالشسع غال
ثم صمت قليلا كأنه غصّ بربقه ، فانفجرت أم الأغر صائحة كأنها كانت تنتظر تلك الكلمات لكي تفرج عن نفسها بالمويل

والبكاء . وأسرع إليها النساء فعاودن ما كن أمسكن عنه من
الندب والعويل وأشتعل الحى كله بالبكاء . واستأنف الحرث القول
بعد حين وهو ينظر بعينين شاخصتين نحو الأفق لا يلتفت إلى جمع
بنى ثعلبة المتزاحم حوله .

فصاح فى حزن وغىظ :

يا ببحر الخيرات لا صلح حتى تملأ البىء من رؤوس الرجال
لم أكن من جناتها علم الله وإنى لحرها اليوم صال
ثم صمت وأطرق حيناً لا يقوى على الكلام . ثم انتفض
نخاةً وركز رمحہ فى الرمال وسل سيفه وهزه فوق رأسه وعاد
إلى إنشاده بعد أن استطاع الكلام فصاح بصوت يشبه هدير
الريح بين الصخور :

قربا مربط النعمة منى لقت حرب وائل عن حىال
فلممرى لأقتلن بىجىر عدد الذر والحصا والرمال
قربا مربط النعمة منى لىس قولى يراد لا بل فعالى
ثم أغمد سيفه وألقى برمحہ أمامه فى وسط حلقة الرجال وتحرك
مهرولا راجعاً إلى خيمته وهو يههم ويهدر ، فجعل يبحث عن
سلاحه ودروعہ ، وأخذ قوسه التى كان قد نزع عنها وترها وأخذ
قطعة من الجلد كانت فى ركن من الخيمة وخرج على قومه وهو
يربط طرفها فى رأس القوس ويقول فى أثناء ذلك كأنه يخاطب نفسه :

قربا مربط النعامة منى قرباها وقربا سربالى
 قرباها وقربا لأمتى زَغْفا . دِلَاصا ترد حدّ النبال
 قرباها لمهفات حداد لقراع الكهول يوم النزال
 وأخذ يذهب إلى خيمته بجهر فيها سلاحه شيئاً بعد شيء ،
 وهو كلما جهر شيئاً خرج به وأنشد قومه بيتاً أو بعض أبيات ، ثم
 يرجع إلى الحيمة فيجهز شيئاً آخر يعود بعده إلى رحبة الحى لستمر
 فى إنشاده المضطرب حتى تجمعت فى الرحبة كومة من الدروع
 والسلاح .

فى هذه الساعة كان الشيخ مرة قد بلغ منازل الحُرث ورأى
 الفرسان ملتفين حول زعيمهم الثائر ، فانفرجت له الجموع حتى
 اقترب من الحُرث ومد يده إليه وقال له بصوت متهدج : « مصاب
 جليل يا أبا بجير ! » .

فالتفت الحُرث إليه ومد يده إليه مصاحفاً وقد ملك نفسه حتى
 علا وجهه السكون وزال عنه اضطراب الغضب ، واكتسى بدل
 ذلك هدوءاً نيم عن عريضة ثابتة وقال يخاطب الشيخ : « ستذوق
 تغلب عاقبة ظلمها » .

وكانت فرسه النعامة قد جاءت إليه عند ذلك يقودها العبدان
 فاقترب منها ومسح رأسها وهى تصهل وتمسح به . ثم اخترط
 سيفه وقبض على شعر ناصيتها فجزه ، ثم قبض على ذيلها الطويل

فقطعه ، وقد سكنت الفرس وظهر عليها وجوم يشبه أن يكون
حزنا وقال كأنه يخاطبها : « ليس بعد اليوم تدليل » .
ثم دفعها إلى العبدین الواقفين عند رأسها في صمت وخشوع
وقال : « قرباها مني فالليلة نسير إلى قتلـة بجير » .
ثم أخذ الشيخ مرة من تحت ذراعه وسار به إلى خيمته
وتبعهما جحدر وبعض كبار قيس بن ثعلبة واصـوف شبان الحـي
ليعدوا خيولهم للغـرة العاجلة في تلك اللـيلة .

كان صباحاً عاصف الرياح ثائر الرمال ، وكان الحر على وقته ولم تطلع الشمس بعد ، تكاد الأنفاس تحتنق منه ؛ حر يشقق الشفاه ، ويحرق الوجوه ، ويخرج الصدور .

وكان فرسان تغلب مجتمعين واجمين لما بلغهم من تحرك بكر إليهم مرة أخرى وإقبالها عليهم بالعدد الكبير ، والسلاح المشحوذ ، والخيال المسوَّمة ، ومعهم الحرث بن عباد قى قومه بنى قيس ابن ثعلبة .

لقد اشتد ساعد بنى بكر منذ غضب الحرث بن عباد لقتل ابنه بجير ، والتف حولهم من كان قعد عن نصرتهم من العشائر والبطون ، وضعفت تغلب بمن انصرف عنها من حلفائها ، حتى لم يبق معها إلا قبائل النمر بن قاسط . وفى مدة عام واحد ذاقت مرارة الهزيمة مرة بعد مرة ، وجعلت ترد من موطن إلى موطن ، وتنزع من موضع بعد موضع ، حتى ألفت رحالها أخيراً عند (قضة) فى أطراف نجد من الشمال . ولكن الحرث بن عباد لم يضع ثأره ، ولم يُهدى من حقه ؛ بل كان لا يزال يثب فى أثر تغلب لينتقم لقتل ابنه الحبيب بجير المظلوم ؛ وكانت شيبان تقبل معه على الحرب

تحت راية الحرث بن همام بن مرة ، كأنها الذئب الجامعة ، لتفسل عن كرامتها ما أصابها من هزائم تغلب في طوال السنين المنصرمة . اجتمعت تغلب في ذلك الصباح القاطط في رحبة حلالها يتشاور قادتها فيما هم فاعلون في لقاء عدوهم المقبل ، فقد سمعوا أنه مُغير عليهم بجيش خميس ليعيد عليهم الكرة بعد انتصاره الأخير في وادي القصبين ، يقوده الحارثان : الحرث بن عباد ، والحرث ابن همام ، الذي آلت إليه زعامة شيبان .

جلس شيوخ تغلب ، وأصحاب الرأي فيها ، ورسائها الشجعان من الشباب ، وقد لُقوا اللثم على وجوههم اتقاء الرياح اللاخفة ، وعصف الرمال يزيد نفوسهم المثارة ضيقا .

ووقف الفارس الكهل امرؤ القيس بن أبان يتكلم ، فأرهف الجلوس آذانهم لاختراف كلماته من أذبال الهواء الصاخب . فقال « أى قوم ! لا تردوا اليوم نصيحتي فقد جربتم من عواقب إغفالها ما كان أولى بكم لو تجنبتموه . لقد نصحت المهلهل ألا يقتل الفتى ابن الحرث فلم يقبل نصيحتي ، ولقد رأيتم ماذا حل بنا من وراء بفيه ، رأيتم تألب بنى بكر علينا بعد أن كانوا عونا لنا ، فلا يمضى يوم حتى نسمع بحليف منهم ينفض من حولنا ، أو نصير منهم ينضوى تحت لواء عدونا ؛ وإذا تمادى الأمر بنا بعد اليوم لم نأمن أن يحل بنا من الكوارث أمثال ما أبزلناه بآل شيبان في تلك

السنين . فالرأى عندى أن نرحل من هذا القفر الأجرد ، وحسبنا ما لقينا فيه من هزيمة بعد هزيمة فإذا نحن عدنا إلى ديارنا . . . » .
وأراد امرؤ القيس أن يمضى فى قوله ، لو لا أن قام شاب وسيم من طرف الجماعة ، وصاح به غاضباً : « حسبك يا امرأ القيس من حقدك على المهلهل . فوحق مناة إبك لا تقول قولك هذا إلا حسداً له ومنازعة لسيادته » .

وتحرك لسماع هذه الكلمات جماعة كان جلهم من شبان تغلب الذين لا يرون فى المهلهل إلا بطلهم المهيّب ، وفارسهم الذى لا يبارى ، يحبون أن يسيروا وراءه فى كل موطن ويطيعوه وإن مضى بهم إلى برك الغنماد من أقصى الأرض ، فقد تعلقت نفوسهم به ، وحل الإعجاب به من قلوبهم حيث لا تبلغ النصيحة .

وارتفعت أصواب هؤلاء من جواب الجمع يقولون : « صدقت يا هجرس ! صدقت يا هجرس بن كليب ! بعداً للجبناء ! لا نطيع غير المهلهل » .

ونظر الشيوخ حولهم مترددين ، وقام بعضهم يريد الكلام فلم يقوَ على إغراق ضجة الشباب الثائر ، فلم يجد امرؤ القيس بن أبان بداً من الصمت ، ومضى ذاهباً عن الجمع وهو غاضب حتى قبع معزلاً فى حلّته . ونهض القوم بعده فى اضطراب وضجيج ، فانصرف الشيوخ واجمين فرادى وثناءً ، واجتمع الشبان فى صعيد

واحد وقد جرفتهم الحماسة ، وساروا والهجرس بن كليب في طليعتهم قاصدين رحلة المهلهل ، يهتفون به ويمجدون المهد على طاعته ، فقد كان المهلهل في هذا اليوم مقبلاً في بيته ، لم يحضر في ذلك الجمع من أثر جراح أصابته في آخر وقعة أصابتهم بكر فيها ، وقعة القصيبات . وسمع المهلهل ضجعتهم وهو في فراشه ، وكانت ابنته سلمى تمسح الدماء عن جرح عميق في أعلى ذراعه بعد أن ضمدت سائر جراحه ، وكانت تحدثه عن زوجها وابن عمها الهجرس بن كليب الذي تزوجها عند ما لازم بعمة في قومه بني تغلب بعد أن قتل خاله جساس بن مرة . ولما انتهت من غسل جرحه بالماء الساخن وذرت عليه رماداً من أعواد طرفاء محروقة ، ولفت حوله ضمادة من الصوف فقال لها أبوها :

— أما قال لك الهجرس أين خرج اليوم ؟ لقد بكر في الخروج قبل أن أراه

فقلت له سلمى مترددة : ذهب إلى الناس ليرى ماذا يصنع بهم ابن أبان

فتحرك المهلهل في مكانه قلقاً وأراد أن يمد يده إلى سيفه ، ولكنه ردها ممتعضاً من الألم الذي أحسه عندما حركها . فنظر إلى ابنته وقال لها في غيظ : «لقد تحرك ابن أبان منذ اليوم . أو يحسب أن هذه الجراح تقعدني في كسر بيتي ؟ لا ربح مناة ، ما أدعه

ينفث سمه . ولأسحقن رأسه قبل أن يستطيع أن يبلع مآربه .
ثم تحامل حتى قام وقال لسلمى :
« ألقى على ردائي وشملى . فلاذهبن إليه . لأهشم أنفه قبل
أن يرفعه » .

فقلت سلمى : « لا يرعك ابن أبان يا أبت ، فإن الهجرس
هناك يرى ويسمع . ولا أظنه يدع له مجالاً لإفساد الناس وتقريق
كلماتهم . لقد حدثني الهجرس عن أصحاب له تواعدوا على أهبة ،
ليفسدوا على ابن أبان تديره ، وقد أخذوا السلاح وجعلوه تحت
ثيابهم ، فإذا لم يستطيعوا تدارك أمره باللفظ حكموا بينهم وبينه
السيف » .

فاطمأن المهلهل لقولها شبتاً ، ولكنه أطرق قليلاً ثم رفع
رأسه وقال :

« ما ينبغي لى أن أطيل احتجابى عن الناس يا سلمى ، قد
عرفت الناس ، فهم لا يذكرون من تطول غيبته . هاتى
شملى وردائى » .

فلم تستطع سلمى إلا أن تطيع أباهما ، فذهبت إلى ركن من
الخيمة وأخذت تلتمس لأبيها بعض ما اعتاد لبسه فى نوادى قومه
من ثياب الديباج الأصفر ، والقباطى البيضاء وبرود اليمين الموشاة ،
وحملت من ذلك شيئاً فى يديها ليختار منها ما يحب ، ولكن ضجة

كانت تقترب عند ذلك ، فيها أصوات ترتفع حيناً وتخبو حيناً . فوقفت في مكانها لتسمع ، وأصاخ المهلهل بأذنه في شيء من الدهشة ؛ ثم اقتربت الأصوات واتضحت ، فإذا بها صيحات تهتف باسم المهلهل سيد ربعة ، وميزت منها سلمى صوت زوجها الحبيب الهجرس بن كليب . فتسمت وتبسم المهلهل ، وقد وقع في قلبيهما أن الهجرس قد حمل معه تغلب وأفسد وحده تدير ابن أبان . وألبست سلمى أباهاً ووضعت ثوباً من الديباج على كتفه ، فلما صار الهجرس وأصحابه في رحبة الحى خرج عليهم المهلهل هشاً بشاً ، وما كاد جمع الشباب يراه حتى علت أصواته في تحية صاحبة ترددت أصداؤها بين ثنايا الشعاب ، فتبسم المهلهل وركز رمحاً في الرمل واتكأ عليه يسراه ، وقال بعد أن هدأت الأصوات :

— مرحى يا شباب تغلب ! فقد أقررتم عيني ، وأزلم ألى .
إن جراح الحرب التى مزقت جسمى تنطق مرحبة بكم ، كأن فى كل منها لساناً يتحرك بشكركم . لقد ثارت تغلب منذ سنين طويلة تطالب بدم بطلها الذى لم يكن فى العرب له كفاء ، وأميرها الذى عجز النساء أن يلدن مثله ، وإن تطاول الدهر . ولم يكن فى تلك الدماء التى أهرقت من العدو ما يقوّم بدمه أو يفي لنا بحقه . بل لقد قتل من أبطالنا فى مواقعهم من لا تشفينا دماء بكر جميعاً من وترنا بهم . فليس بيننا وبين القوم إلا حد السيوف ، وأسنة الرماح .

لأنوادعهم ولا نخيم عن لقاءهم حتى نفنيهم تقتيلاً ، ونقطع أوصالهم تقطيعاً . واكليباه ! هل ترجع السيوف إلى أعمادها ولا يزال في بكر شريف ؟ واتغلباه ! هل ندع دماء من قتل من تغلب ولا يزال بعدوكم جمع . ليس بيننا وبينهم إلا طعن الكلى وضرب الرقاب ، وتقليق الهام وتخريق الصدور . وإذا كان في تغلب من زعزعت أول صدمة فبعداً للجبناء ! ألا بعداً للجبناء !

فتلقف الجمع هذه الكلمة وصاح في حماسة : « ألا بعداً للجبناء ! » وجعلوا يرددونها .

وسكت المهلهل عند ذلك فإن الضجة التي علت من صيحات الجمع المضطرب أغرقت آخر كلماته فلم يستطع المضي في الحديث . وعاد السيل الثائر من ساحة المهلهل وتفرق بين الأحياء منادياً للحرب ، فلم يبق في مازل تغلب من تجرأ على أن ينطق بحرف في ذكر امرئ القيس بن أبان .

ودخل الهجرس إلى خيمة عمه فحدثه بما كان من قول ابن أبان وما كان منه ثم قال :

— ولا أحسب الأمر ينتهي يا عماء إلى حيث انتهى إليه لو طال بنا المقام .

فقال المهلهل وقد عبس عبسة عميقة :

— أجل يا ولدى ! لن أطمئن وهذا الأرقم يتحين الفرص

للوثوب . ولكن هون عليك فما كان عمك ليخاف هذه الزواحف .

فقال الهجرس :

إن امرأ القيس قد ذهب إلى منزله اليوم ولا أراه يجرؤ على أمر إلا بعد أن تنصره هذه الفئة من الشيوخ .

فأطرق المهلهل حيناً ثم قال في غيظ :

— وحق آلهة وائل ما هو بمنته حتى أذيقه عضه شيبى .

ولو لا أن يقول الناس إن المهلهل يقتل أصحابه لما أبقيت عليه منذ حين . لقد عرفته ورأيت خلافه على منذ بصحنى فى أمر بجير . فإنه ما قال كلمته التى قالها يقصد النصح ولا الخير ، بل قالها لتسير فى الناس فتكون وصمة عار تلحق بى .

فقال الهجرس : « وإنه لا يزال يتحدث بها إلى الساعة . وكانت هى أول كلماته فى اجتماع اليوم » .

فقال المهلهل : « ويل له من خبيث ! إنه ليضل الحق من قوى إذ يسمعون أنه نصحنى بالعفو عن الفتى المسكين ابن أم الأغر فعصيته وقتلت الفتى بغير جريرة » .

فقال الهجرس : « صدقت يا عمه ، فقد رأيت أثر قوله فى الناس منذ تكلم . فأخذوا يتهامسون فيما بينهم عما أصاب تغلب من جراء مخالفتك وقتل الفتى » .

فصاح المهلهل :

— أغرار وحق أوال يا ولدى ! ما بعث الحُرث بولده إلى
إلا وهو يأمرنى بالكف عن حرب قومه . فلو خالفته وأيت إلا
الحرب لما كان منه إلا أن ينصر قومه . لقد عرفت منذ تحرك
الحُرث أنه إنما غضب لمن قُتِل من بكر ، وأنه لا يريد إلا التماس الحيلة
لإثارة الناس عليّ . فبعث بابنه بجير حتى يظهر للعرب جميعاً أنه قد
أرضانى ورغب فى إصافى . ولو لم أقتل بجيراً لما عدل عن حربى ،
ولما انصرف عن نصره قومه . لقد عرفت أنه عدو منذ بعث إلى
رسالته . وما كان ينبغى لى إلا أن أبدأ عدوى بالحرب قبل أن يبدأنى .
وسكت لحظة ثم نظر إلى الهجرس وقال وقد ذهب عنه الوجوم :
— دع هذا يا هجرس فليس يغنى عنا القول . هى الحرب
فلنمض إليها . سنمضى إليها قبل أن تلتئم هذه الجراح . هلم يا ولدى
فلن نطيل الجبل لابن أبان ليمضى فى مكروه وكيد . لأحملنه على
الحرب حملاً ، إذا لم يكن من الحزم أن أجمه سيقى . هلم يا ولدى ،
فأليلة نستعد للقاء عدونا .

ثم خرج وسار الهجرس إلى جواره يقصدان مجمع القوم فى
الطرف الآخر من المحلة .

مجهر بسو بكر للمسير إلى تغلب في وادي قِضة ، ولم يدعوا
 لهم فرصة ينفسون فيها عقب هزيمتهم في القصيبات ، وقد استعشت
 نفوس بكر بعد هزائمها المتكررة ، وعاودها الأمل والقوة بعد
 الانتصار ، فلم تطق الصبر ، وأرادت أن تنهز فرصة ما أصاب
 أعداءها من الوهن والجراح لكي تجعل الوقعة المقبلة قاصمة الظهر .
 وزاد من حرص بكر على الإسراع إلى مواصلة الحرب ما بلغها من
 أنباء الخلاف بين شيوخ تغلب وشبانها ؛ فقد سار الركبان بأحاديث
 ما يضمهر المهلهل لامرئ القيس بن أبان ، وما أحدثه الهجرس بن
 كليب من الفرقة بين شيوخ القوم وبين ناشئتهم ، فعلموا أنهم إن
 صدموا عدوهم صدمة عنيفة لم يجدوه إلا مقسم الأهواء ، مشقت
 الآراء . فلم تقعدهم شدة الحر عن الاستعداد السريع ، ولم تنههم
 الرياح العاصفة المحرقة عن عزيمة المسير ؛ فاجتمعوا في ناديهم في
 لباس الحرب يتشاورون في الخطة المقبلة ، وكان فيهم فرسان من
 شيبان وقيس بن ثعلبة وعجل وحنيفة ، وفيهم الفارس الشاعر الذي
 ما زال رغم تقادم السنين بطل الحروب الفند بن سهل سيد قبائل
 بكر باليامة ، وقد أتى مع قومه لنصرة إخوانه عند ما بلغه اعتداء

المهلhel بقتل بجير . وكان الحرث بن عباد في صدر النادى وقد جلس حوله شيوخ العشائر والبطون في حلقة مفرغة ، وجلس سائر القوم صفوفاً غير منتظمة بعضها يتداخل في بعض .

ولما التأم الجمع وقف الحارث يتكلم فقال :

— يا فوارس بكر ! قد علمتم ما عقدنا عليه النية من السير إلى هؤلاء الظلمة حتى لا ندع لهم متنفساً من السلام لكي نذيقهم وبال ظلمهم ونقذف بهم في مصارع نفيهم . ولكنى أشفق أن تسيروا في وقدة هذه الحرور ، فهل ترون أن نؤجل السير حتى تهدأ هذه الرياح ؟ .

ولما أتم قوله نظر إلى الحرث بن همام بن مرة سيد شيبان كأنه يدعوه إلى إعلان رأيه ، فتحرك الحرث يريد الكلام ولكن علت ضجة من الجمع لم يستطع معها الحارث أن يتكلم ، فترث وهو ينظر إلى مَنْ حوله في شيء من الارتباك . فوثب جحدر بن ضبيعة قائماً وكان قصيراً دميماً ، فما كاد يقف حتى زادت الضجة اشتداداً ، وتقاذفت نحوه ألفاظ الدعابة والفكاهة . فلم يرهبه ذلك ، بل أعلى صوته وقال بصوت حاد :

— على رسلكم حتى أقول كلمة .

وما كاد ينطق حتى رمته الرياح النائرة بلفحة رملية اضطرتة إلى أن يحول وجهه عنها ، وانفجرت ضحكة عالية لم يتخلف

عنها أحد من الشيوخ أو الشبان ، فضحك جحدر مشاركا في المرح
الشامل ، ولكنه لم يجلس ولم يتردد بل صاح بصوته الحاد :
— كأنتي بهذه الريح تريد أن تعدل بي عن رأيي ، ولكنني
وحق أوال لا أنثنى عنه وإن قذفتني السماء بصواعقها . لا بد أن
نسير اليوم إلى قضية .

فعلت ضجة استحسان صحبتها ضحكات ومداعبات ، وصاح فني
من آخر الجمع : « قف يا جحدر فوق صخرة حتى نراك » .
فرادت ضجة الضحك علوا ، ولم يشأ جحدر أن يدع الفرصة
بغير أن ينتهزها ، فوثب على كتفي فتى شديد قريب منه فوقف
عليهما وقال ضاحكا : « هل أغيب الآن عن عين أحد ؟ » .
ثم نزل سريعا وهو يشارك في الضحكات العالية التي لم تفت
ثم أشار بيده للقوم أن يهدأوا ، فسكنت الأصوات ونظرت إليه
العيون ومالت إليه الأسماع في عطف فقال جادا :

— « نحن اليوم في جماعة لم يجتمع لنا مثلها من قبل ، فإذا
نحن سرنا إلى العدو اليوم فاجأناه بما لا قبل له به وكانت الموقعة
القاضية » .

فتجاوبت الأركان بصيحات : مرحى ! أحسست !
واستمر جحدر فقال : « ولكن لي عليكم شريطة قبل أن
أفرغ من قولي » .

فصاح به أفراد من جواب الجمع : « لك ما شرطت فاحتكم » .
فقال جحدر وهو يضحك : « لقد هممت أن أشرط لنفسى
نصف هذا الفء الذى سنغنمه اليوم . ولكنى عدلت عن ذلك .
وحسبى أن أشرط أمراً هو أهون عليكم منه . إذا نحن سرنا اليوم
فى جماعتنا هذه خشيت أن يختلط علينا الأمر فلا يميز أحداً أصحابه
من أعدائه ، وأخشى أن يخالطنا العدو وهو قليل فلا نجد دوننا
من نضربه فيضرب بعضنا بعضاً فى حماسة القتال » .

فنظر الناس إليه حيناً فى صمت ، وقد عجبوا أن يرج هذا
الرجل العجيب هزله بمثل هذا الجد الجاهم . ونهض الفند بن سهل
سيد بكر اليمامة فقال :

— « أما إنها لكلمة حق صدق فيها أخى جحدر وبصح .
فلقد أقبلنا عليكم منذ قليل بوجه جديدة لم يسبق لكم عهد بها ،
ولا بد لنا من علامة تتعارف بها » .

وأقبل الجمع بعضه على بعض يتحاورون فى الحديث ، فقام
الحرث بن عباد وما رآه الناس حتى خشعوا وهدأت الأصوات
وتحولت إليه الأبصار فقال : « أيها الإخوان ! لقد صدق أخى
أبو ضبيعة إذ قال إنه يجب علينا أن نجعل لأنفسنا علامة تتعارف
بها ، وأرى أن نخلق رؤوسنا جميعاً فتكون تلك ميزتنا وسمتنا » .
فوثب جحدر على قدميه وقال فجأة : « وماذا يبقى لى إذا

حلقت لِمَتِي يا أبا بجير ؟ » .

فعلت خجة الضحك مرة أخرى واستمر جحدر يقول ضاحكا :
« أتبم ترون أن شعري نصف قامتي . وبغيره يصبح لى وجه قرد
أصلع ، فاتركوا لى لتى ، وافعلوا ما شئتم فى لمكم » .
فصاح فتى من وسط الجماعة يمزح قائلا : « اشتراها منا ،
فلن نتركها لك بغير ثمن » .

فصاح جحدر فى جد : « أشتريها بأول فارس من العدو يطلع
عليكم ، لكم على أن أقتل أول فارس من تغلب يقبل نحوكم » .
فصاحت الجماعة : « قبلنا ! قبلنا ! » .

فأشار الحرث بن عباد للجماعة أن تنصت إليه ثم قال :
« لا بأس بهذا ! يبيع لجحدر لته . وأما نحن فنخلق لمنا » .
فصاح الفند بن سهل ضاحكا : « هذا إذاً يوم تحلاق اللهم » .
فنظر إليه الحارث باسماً وقال : « نعم هو هذا ! هو يوم تحلاق
اللمم » .

وسكت لحظة ثم قال : « وقد علمتم أن تغلب تقيم الآن فى قِضَّة
وسط صحراء مقفرة . وسنكون فيها فى أرض غريبة لا نعرف موارد
مياهاها ولا ندرى لعل تغلب قد غوّرت آبارها وطّمت عيونها
توقعا لمسيرنا إليها — فلا بد لنا من حيلة فى تدبير ما نحتاج إليه
من الماء قبل أن نذهب إلى عدونا فى عقر داره » .

فصاح جحدر وقد وثب قائماً : « نأخذ معنا من الماء ما يكفيننا حتى إذا ما التحم الجبشان حملة لنا النساء وسرّن من خلفنا ، فإذا عطشنا رجعنا إليهن لنتوى » .

فصاح به شاب ضاحكا : « على أن لا يروى النساء إلا حليقا » . فقال جحدر : « لك علىّ يا ابن أخي ألا أعود إليهن إلا مُعلّكا . لن أعود إليهن إلا حاملن أسيرا » .

وكان للفند بن سهل بنتان قد وقفتا في فتيات نكر عند أطراف الجمع يستمعن الحديث ، وكانتا فتاتين ذوّاتيّ جرأة وشهامة . فصاحت كبراهما : « نسير وراءكم لنحمل الماء ؟ هذا لا نرضى به أبداً » .

فتحولت الأنظار إليها وقال الحرث : « وماذا تريدن يا ابنة الكرام ؟ » .

قالت الفتاة في حماسة : « تحمل كل منا إداوة ماء وهراوة غليظة ، فإذا مررنا بحليق طريق أسهونا جرحه وسقيناها ، وإذا مررنا بتغلي صريع قضينا عليه » .

فعلت ضجة عامة من الجماعة — ضجة الإعجاب والأريحية ، وقال الحرث ناظراً إلى الفند : « لتكن ابنة الفند أول امرأة في العرب أشركت النساء في الحرب ! » .

ثم نظر إلى الفتاة وقال : « هلمّ يا فتاة ، فثلك من تلد الأبطال ! » .

بعد ساعة كانت قبائل بكر تتحرك سائرة نحو الشمال ، وهي تملأ فضاء الأرض بالخيـل والرجال والمطايا من الإبل فوقعها الطعائن من النساء تليها الروايا تحمل الماء ، وفي آخر القوم جاء العبيد يسوقون جنائب الخيل والإبل لتحل محل ما يقتل في الحرب من الدواب .

وكان اليوم التالى صنو سابقه في الحر اللافح والريح الثائرة والشمس المحرقة والرمال السافية . واجتمعت فيه قبائل بكر كلها تحت لواء الحارثين : الحرث بن عباد على جناح والحرث بن همام بن ممرة على جناح ، وأبطال القبائل كل منهم في قومه يتساندون ويتعاونون فيما بينهم . والتقى الجيشان ، فكان أول من برز من بكر جحدر بن ضبيعة يلتمس ثمن شعره الذى لم يخلق ، واندفع إلى تغلب فجأة فاحتضن أول فارس طلع عليه ، ولم يكن التغلب على استعداد لذلك النوع من المنازلة ، فهي طريقة ابتكرها الحرث بن عباد وتعلمها منه في ذلك اليوم جحدر بن ضبيعة : أن يهجم على عدوه في سرعة البرق الخاطف ، فلا يضرب ولا يطمعن ، ولكن يحتضنه ويعدو به راجعاً إلى قومه ، وعاد جحدر بأسيره مطروحاً أمامه على ظهر الفرس وهو يحرك رجليه وذراعيه في الهواء يائساً . فضحك فرسان بكر وصاحوا مرحبين ، وغضب فرسان تغلب وتصايحوا يحرض بعضهم بعضاً على دفع الهجمة بأخرى مثلها ،

وما هو إلا قليل حتى التحم الجيشان في حرب عامة .
مضى معظم النهار والقتال على استماره ، الحارث بن عباد
يُضْرَبُ ويضرب في تغلب ، والمهلل مع جراحه يفرى فرياً في بكر ،
ودفع جحدر المسكين ثمن لته عظيماً ، فإنه مازال يحارب حتى جرح ،
فلما صرت به فتيات بكر حسبنه تغلياً ، فطلب منهن شربة ماء
فأهوين عليه بالهراوى ، وهو كلما صاح بهن أنه بكرى حسبنه
يخدعن ، فزدن في ضربه شدة حتى قتلنه كما قتلن كل جريح آخر
غير حليق .

ولما أحست تغلب شدة وطأة عدوها عليها لجأت إلى الحيلة
القديمة عند العرب فأدبرت مستهزمة ، وتبعها بكر وهى تظن أن
اليوم قد انتهى إلى نصر تشتق به من عدوها الشفاء الكامل ،
ولكنها ما كادت تباخ وسط السهل ، حتى رأت تغلب قد وقفت
فجأة عند ما نادى صوت المهلهل صائحاً : « واكليباه ! » .

وكانت تلك علامة — فوق الفرسان وارتدوا على بكر وهى
في تفككها مستتيمة إلى توهم النصره . واهتزت بكر هزة عنيفة
من الصدمة ، وأقبل عليها المهلهل كالصاعقة ، وحوله حلقة من
الصناديد يضربون كأنهم يحصدون حصداً ، فتردد البكريون ملياً ،
ثم ترزعوا ثم لووا لجم الخيل وولوا الأدبار يطلبون النجاة من
سيف المهلهل ومن حوله .

كانت فتيات بكر عند ذلك في آخر السهل يسعين سعيًا

حشيئاً ليدر كن قومهن الذين أسرعوا في آثار تغلب المهزمة ، وفيما
هن في سيرهن أبصرن فرسان بكر مقبلين نحوهن منهزمين وقد
تصدعت صفوفهم وتشتت شملهم ، وخيول المهلهل في آثارهم تصيح :
« واكليباه ! » .

فوقفن صفاً في طريق الخيول المقبلة ، وخرجت ابنة الفند إلى
صدر الصف ، وصاحت : « إلى أين يا خفاف القلوب ؟ » .
وأخذت تشد تشيداً وفتيات ينشدن وراءها :

إن تقبلوا نعانق وفرش النمارق وندهن المفاقر
إن تدبروا نفارق فراق غير وامق عرس المولى طالق
والعار منه لاحق

فاضطر الفرسان أن يقفوا خوف أن يطاؤا الفتيات بخيولهم ،
ثم سمعوا نشيدهن ، فثارت كرامتهم وأحسوا الخجل من هزيمتهم ،
ودعا بعضهم بعضاً للثبات ، ووجد القواد فرصة لتثبيت القلوب ،
ولم الشعث ، وثنوا أعين الخيل إلى وجه العدو اللاحق بهم
وتقدموا إلى لقاء المهلهل ومن معه وكان أعنف اصطدام وأشد قتال .
أدرك الحرث بن عباد قومه المهزمين بعد لآى ، وكان لم ينهزم
معه بل وقف في جماعة قليلة يحارب في موضعه الأول ، وجاء
الشيخ الشجاع الفند بن سهل كذلك لما رأى أن مكان الحرب قد
تحول ، وجعل يحرض قومه وهو يحارب في طليعتهم ، ورأى

الحِث بن عباد المهلهل وهو لا يعرفه في وسط فرسانه لا يدنو من كتيبة حتى يفرقها ، ولا يقبل على جماعة حتى يشتتها ، فنظر حوله وقال صائحاً : « هذا صيد كريم » .

ثم ركض فرسه النعامة متجهاً نحو الفارس المجهول ، وما هو إلا قليل حتى كان عائداً وقد وضع الفارس الخفيف أمامه على ظهر النعامة ، والبكريون يستقبلونه بصيحة فرح تملأ الفضاء . وما كادت تغلب ترى المهلهل أسيراً حتى ولى فرسانها الأدبار وتعقبهم فرسان بكر يتخطفونهم بالرماح .

وركض الحِث فرسه وأسيره أمامه ، وإلى جواره الفند بن سهل حتى بلغوا مؤخرة الجيش فألقى به على الأرض ووقف يتأمله . وكان الفارس الأسير في عده كاملة من سلاحه ودروعه ، لا يظهر منه إلا عينان تبرقان من وراء السيف ، فلما ألقاه الحِث على الأرض وقف مطرقاً كاسفاً ، فسأله الحِث : « من أنت لا أم لك ؟ » .

فقال الفارس المقنع : « أنا أسيرك » .

فسأله الحِث : « ما بال رمحك طويلاً ؟ » .

فقال الفارس : « لم يفن عني طوله » .

فقال الحِث ساخراً : « رمح الجبان طويل » .

فعلت ضحكة ساخرة من حوله ، واهتز الفارس من وقع

الإهانة ، ولكنه لم يتكلم .
ولما خمدت أصوات الضحك قال الحرث : « لقد حسبتك المهلهل ؟ » .

فقال الأسير « وأنى لك أن تصيبه » .
فقال الحرث في غيظ : « وحق مناة لو رأيته ما نجا » .
فقال الأسير : « أتربد أن تراه ؟ » .
فقال الحرث مسرعاً : « من أجله سعيننا إلى هنا » .
فقال الأسير : « وماذا تفعل لو دلتك عليه ؟ » .
قال الحرث ساخرأً : « أطلقك حراً » .
فقال الأسير متهمكاً وفي صوته اضطراب يسير : « ومن يكفل لي صدقك ؟ » .

فظهر الغضب في وجه الحرث ، ولكنه أجاب في لهفة : « سل من شئت أن يكفل لك صدقي » .
فتقدم الأسير إلى الشيخ الشجاع الفند بن سهل ، وكان إلى جوار الحرث وقال : « أريد هذا ضامناً » .
فنظر الشيخ إلى الحرث متردداً ، فقال له الحرث : « اضمن له يا أبا مالك » .

فقال الشيخ : « ضمنت لك وفاءه ، فمن أنت ؟ » .
فلم يجبه الأسير ، بل نظر إلى الحرث وقال له : « أتريد أن ترى المهلهل ؟ » .

فقال له الحرث بمحمد : « نعم . قلت لك أريد أن أراه ، لأضع هذا السيف في قلبه » .

فزع الفارس بيضته عن رأسه وقال :
« هأنذا المهلهل ، فاقتلني إن استطعت » .

فأسرع الشيخ الفند بن سهل ووقف دونه خشية أن يبادر الحرث إليه فيقتله وينقض عهده في ضمانه ، فيلحقه من ذلك عار الأبدي .

وارتفعت هممة في الجمع الملتف حول المهلهل ، بين صيحة غضب ، وأنة أسف ، وآهة حقد .

ووقف الحرث بن عباد قابضاً على سيفه وهو يرتعد من الغيظ وقال : « ثكلتك أمك أيها المخادع ! » .

فقال المهلهل ثابتاً : « الحرب خدعة » .

فنظر الحرث إلى الفند بن سهل وهو واقف بينه وبين أسيره وقال : « لقد هممت لولاك يا أبا مالك » .

ثم سكت وذهب بعيداً وجلس على صخرة وهو ثائر النفس ، وقد بدا على وجهه أثر الحقد والاضطراب ، ثم أطرق يحدث نفسه ويئن من شدة الغيظ : « وابجيره ! هل أهدر دمه وقاتله في يدي ؟ » .

والتفت الفند بن سهل إلى المهلهل وجعل يتأمل وجهه ويتفحص فيه ، ولم يملك نفسه من الإعجاب بمظهر ذلك البطل الدموي الذي

لم يضع سلاحه كل تلك السنين ، ولم يطع في ثأره الهائل نصيحة ولا توسلاً ، وعلت وجهه برغمه ابتسامة خفيفة ثم قال له : « لا أبالي أن أنجو بحياتي كما نجوت يا مهلهل » .

فقطعت هذه الكلمة قلب المهلهل ، وأحس صدق تأنيب الشيخ فقال : « ولكني أطيل حياتي لأطيل فيكم فتكى » .

فسمع الحرث هذه الكلمة ، فكأنما هو وحش رابض أغضبته . فأقبل مسرعاً وقد لمعت عيناه بالبشر . فأسرع الشيخ الفند فاعترض سبيله وقال له محذراً : « على رسلك يا أبا بجير . لقد ضمنته » .

فصاح الحرث ثأراً : « وحق مناة لا ينصرف عني هكذا » . وكان خبر أسر المهلهل قد ذاع في الجيش وانتشر حتى بلغ النساء في الحى ، فعلمت به أم الأغرة زوجة الحرث ، فأقبلت تسعى في هلع حتى وقفت إلى جوار الشيخ ثم جعلت تتوسل إليه قائلة : « بعنى أخى ، امنن علىّ به ؛ إن قتله لا يعيد بجيرا بل يزيد قلبي جرحاً » . فتردد الحرث وهدأ غضبه قليلاً وتحرك متردداً ثم قال : « إذاً فليدلى على رجل من قومه أقتله ببجير » .

فذهبت أم الأغرة إلى المهلهل ترجوه أن يفعل ما يريد زوجها حتى لا يفتك به ، وصمت المهلهل لحظة وهو مطروق ، ثم رفع رأسه وقد جال على وجهه ظل ابتسامة ، ولكنها كانت ابتسامة غلّ وحقد ، وأشار إلى أقصى الفضاء وكان فيه بعض فرسان من

أهل الحفاظ لا يزالون يتجاولون ويتحاربون ، وقال للحُرث :
« أترى ذلك الفارس صاحب العمامة الحمراء ؟ » .

فالتفت الحُرث بلهفة إلى حيث أشار المهلهل وقال : « نعم .
فمن هو ؟ وهل هو كفاء لولدى ؟ » .

فقال المهلهل : « هو امرؤ القيس بن أبان » .
فما كاد الحُرث يسمع اسم الرجل حتى وثب على النعامة وقصد
إليه ، وما هي إلا لحظات حتى صرعه وقتله ، وعاد راكصاً فرسه
يصيح : « لا خير في تغلب بعد امرئ القيس ، لئن فاتني المهلهل
بخداعه فقد اشتفيت بسيد تغلب وشيخها » .

ولم يخل وجه المهلهل من دلالة الارتياح عند ذلك ، فقد كفاه
الحُرث مؤونة ابن أبان وخلافه عليه ومعارضته لمشيئته في قومه .
ولما أقبل الليل كان المهلهل طليقاً يسير كاسف البال ينبع آثار
قومه الذين ارتحلوا من قِضة هارين نحو الشمال ، وكان كلما مرَّ
بشعب من الشباب رأى جماعة يحملون صريماً أو يمينون على السير
جريماً ، ويسمعون في آثار قومهم بعد الوقعة الطاحنة .

ولم يخل بيت في تغلب بعد يوم تحلاق اللمم من بكاء على
قتيل ، أو قلق ولهفة على حياة جريح . ولم يقف بهم السير في هربهم
حتى بلغوا أكناف السواد من أرض العراق ، خوفاً من غارات
بنى عمهم المنتصرين .

سار المهلهل من معسكر بكر بعد أن أطلقه الحرث بن عباد وهو يجزر رجله ، وكان الليل البهيم يلف الصحراء في رداءه الأسود ، فلا يظهر منها في ضوء النجوم الخافت إلا الأفق البعيد خطا متموجا غامضا . وكان يخيل إليه أن ذلك الليل الأسحم يهبط على الأرض فيثقلها ، ويهبط بها إلى أسفل في الفضاء الفسيح . كان رأسه يعيد به ، وخياله يضطرب ، وأعضاؤه المتعبة المثقلة بالجراح تبض بالألم كأنها تضج بالآنين . وكان قلبه أثقل على صدره من ذلك الليل يخفق في خمود وتباطؤ ، كأن ضرباته خبط ناقة عشواء ضالة في الظلام .

وجعلت صور حياته تتوارد على ذهنه سراعا ، كما تتوارد الصور على ذهن الغريق . لقد سار بقومه حيناً إلى النصر ، وساد فيهم ما ساد حتى كاد يبلغ فيهم مكانة أخيه كليب ، ومضت عليه السنون وهو يحرز النصر بعد النصر ، ويسفك الدم بعد الدم ، ولكن ذلك كله لم يرو غلته من الانتقام ، بل كان كلما زاد من القتل والظمن اشتد ظمؤه إلى القتل والظمن ، حتى صار القتال قصد حياته كلها ، فأنساه المجد والسلطان ، وأغلق قلبه عن الرحمة

والسلام ، ولم يُبق في قلبه موضعاً لمودة أورشيم . ولم تخمد ثورته لما اعتراه من ضعف ، أو ما أصابه من هزيمة ؛ فقد كان وهو يجرد رجله بعد خروجه من معسكر الحرث بن عباد لا يزال يتمثل صور الطعنات التي يدخرها ، والضربات التي يعتزم أن يسدها ، والدماء التي يريد أن يسفكها . كان غليله الثائر لا يزال يضطرم في قلبه المكدود ؛ لم يزد الخذلان إلا عنفاً ، ولم تزد الهزائم إلا قسوة . وصرت بذنه صورة بجير بن الحرث ابن أخته المسكين ، وهو يتوسل إليه بالرحم أن يدعه فلا يسفك دمه بغير جريرة ، وتذكر صاحبه الشجاع امرأ القيس بن أبان ، وهو ينصحه ألا يمس الفتى البريء بسوء وهو ابن أخته ، وتذكر ما جره عليه قتل الفتى من مصائب ، بعد أن ثاب أبوه الحرث ثورته . تذكر هذا كله ، ولكن قلبه كان لا يزال يشتعل بالحقد والغِل ، فلم يحس ندماً ، بل علت وجهه المتعب بسمه قاسية كأن ذكرى ذلك المنظر قد بعث فيه نشوة وارتياحاً . ثم تذكر امرأ القيس بن أبان وهو قتيل عند قضة ، وتذكر الخيانة التي زل إليها عندما أباح لحقده أن يخذله ويملك عليه زمام نفسه فيجعله يدل عليه الحرث بن عباد ، ويشتري بالخيانة حياته . ولكنه لم يحس ندماً ، بل علت وجهه بسمه قاسية أخرى ، واهتزت نفسه هزة تشبه أن تكون نشوة وارتياحاً ، فإن امرأ القيس كان يخالفه ، ويمصيه وينصحه ،

وما كان أحب إلى نفسه أن يتذكر منظره وهو صريع بيد
الحُرث أبي بجير .

وتنبه المهلهل إلى نفسه في فترة من فترات الصحو بين هذه
الخواطر والوساوس ؛ فعجب لقلبه كيف تبدل حتى أصبح كأنه
يطيع شيطانا مشثوما يسوقه في سبيله ، ولكنه ما كاد يحس هذا
اللين يلم به حتى عادت إليه وساوسه وخواطره الدموية ، وغاب في
سيل من ذكريات ضرباته وطعناته .

ومرت في ضميره سانحة سريعة من الأسف والحجل عندما
تذكر خدعته التي خدع بها الحرث واستطاع بها أن ينجو بحياته ،
وعندما تذكر ما قاله له الشيخ الشجاع الفند بن سهل ، إذ قال له :
« ما أبالي أن أنجو بحياتي كما نجوت يامهلهل » ! لقد كانت سخرية
مرة فيها تأييب وفيها ازدراء ، وما كان أحراه أن يربأ بنفسه عن تلك
المذلة ، ولا يشتري الحياة بذهاب الكرامة ؛ ولكنه أغمض عينيه
وهز رأسه بعنف كأنه يريد أن يبعد عن نفسه تلك الخاطرة المزعجة ،
وجعل يحمل نفسه على تأمل ما يأتي به الغد القريب من وقائع
جديدة يجد فيها شفاء جديداً من غليله ، وفرصة أخرى ينكل
فيها بعدوه ، ويسفك سيلاً آخر من دمانه .

مضى المهلهل في صحبة هذه الهواجس المظلمة الشائرة ، كأنه
كان يحاول أن يخفى فيها عن نفسه ، وأنس إلى ذلك الظلام الثقيل

الذى حوله ، وجعل يتنقل من موضع إلى موضع ، ويفتح صدره
لنفحات الليل الرطبية الباردة ، لعلها تطفى النيران الثائرة فيه ،
وجعل يتأمل النجوم ويمحادثها ، تلك النجوم الأبدية التى طلعت
على الأجيال جيلا بعد جيل ، واطلعت على اضطراب الإنسان أبد
الدهر الطويل ، ثم شهدت فناءه طبقة بعد طبقة ؛ وخيل إليه أنها
فى لآلئها تضحك ساخرة منه ، أو أنها تضحك ساخرة من ذلك
النصر الذى ظل يضطرب من أجله كل تلك السنين ، فإذا به ينهار
كما تنهار الرمال ، ولم يترك فى قلبه إلا تلك الوخزة الأليمة التى كان
يحسها كلما تذكر أخاه البطل كلييا القتيلى ؛ نعم فإن الجرح الذى
أصاب فؤاده من مقتل أخيه كان لا يزال مع مر السنين جرحاً
دامياً وجيماً .

أخذ السير يعرج به فى شعاب الفلاة ، حتى انتهى به أخيراً
إلى شعب خفى فى ثنايا واد عميق ، فسمع به حساً ينبعث مثل
أصوات فى الحلم . حساً خفياً مضطرباً غامضاً .

فسار فى حذر إلى طرف الشعب من وراء ثنية الوادى
وكان الظلام فى داخل الشعب أكثف حُلْكة من الليل ، فلم يستطع
أن يتبين أحداً من الجلوس ؛ فوقف وراء صخرة خوف أن يكون
هناك بعض أعدائه . وأصاخ بسمعه إلى الحديث وجعل يجهد
نفسه فى تمييز الأصوات وتعرف جرسها ونبراتهما وخيل إليه أنه

يعرفها . لقد سمع تلك الأصوات من قبل ، فهي بلا شك أصوات شبان من قومه ، كانت ترتفع في نوادي تغلب لكي تنصره وتهتف باسمه وتحيطه بضجة تشبه أن تكون من ترتيل العبادة والتقديس . واستمع إلى الحديث ، وكانت الأصوات واضحة في سكون الليل يزيد لها وضوحاً هدوء الهواء . وما كاد يقف هناك لحظات حتى كان جسمه يتفصد عرقاً . كان الجدال عنيفاً ، ولكنه لم يكن بين جانبيين يتنازعان ؛ بل كان بين عصبة مجمعة على لومه والحق عليه وإن تجادلت في تقدير جرائره .

قال أحدهم : « لقد نصحه امرؤ القيس ألا يقتل بجيراً فلم يطعه بل قتل الفتى المسكين ظالماً ولم يشفق من خبيعة أحتة أم الأغرفيه » . وقال آخر : « ولكن أدهى من ذلك أنه لم يستطع أن يقف للحُرث بن عباد ولم يمنع نفسه منه . ألم تروه وهو يحمله أسيراً على فرسه ويمدو به وهو ملقى على ظهر جواده كأنه صبي ؟ أى عار جلب هذا الزير على قومه ! »

وقال ثالث : « ولا أشك في أنه هو الذى دل الحرث على ابن أبان ليقتله . لقد سمعت بعض بنى بكر يتحدثون بهذا وأنا مختلف في الكهف عقب الهزيمة . لقد قالوا إنه دل الحرث على ابن أبان سيد تغلب . وما أراد بخيائته إلا أن يشفى حقه من شيخنا الباسل الذى كان يجادله ولا يبتنى إلا خيركم » .

فعلت من الجمع صيحة إنكار ، وقال أحد الجلوس :

— أو سمعت هذا يا ابن الأجدع ؟

فقال الشاب : « سمعت هذا بأذني هاتين ، وسيأتيكم مصداق قولي إذا رأيتم المهلهل غداً يسير في آثاركم . فقد منّ عليه الحرث وأطلقه بعد أن خان له سيد تغلب ثمناً لحياته . نعم لقد اشترى حياته بالعار والخسة » .

فعادت الضجة أعلى وأعنف ، واختلطت بها الأصوات ، وتطايرت في ثناياها ألفاظ الحنق ، وكان اسم المهلهل يتردد فيها مع أفزع السباب . ثم تجرأ أحدهم فقال : « إنه قد سفك دماءاً في سبيل دم أخيه الطاغية ، وسرباً وراءه كهولاً وشباناً ، وها هو ذا يخوننا ويدل أعداءنا علينا لكي ينجو بحياته » .

فصاح الجمع مضطرباً :

— « القتل له ! القتل للمهلهل ! القتل للخائن الجبان ! » .

فلم يطق المهلهل البقاء ، وتنحي عن موضعه مسرعاً ، وسار وحده وهو لا يدري ماذا يرى من أمامه ، يتعثر من الاضطراب وقلبه جائش بالألم ورأسه مضطرب بما فيه من الهموم ، حتى إذا اقترب وهو يترحم من خيام قومه قصد إلى خيمة الهجرس ابن أخيه ، وناداه في احتراس من باب الخباء . فتنبه الهجرس وخرج إليه مسرعاً ، وعرفت سلمى زوجة الهجرس صوت أبيها

المهلل فخرجت إليه متلهفة .

فلما وقع نظر المهلل عليهما أشار إلى الهجرس ليتبعه ، وأشار إلى سلمى أن تدخل الخباء في صمت ، ثم مضى مع ابن أخيه حتى خرجا من بين الخيام وذهبا إلى جانب كثيب من الكثبان القريبة فاستترا وراءه وجعلا يتحدثان .

لم تمض بعد ذلك الاجتماع ساعة حتى كان المهلل والهجرس يستعدان للنزوح عن قومهما ، وقد عزم المهلل عزمًا لا يتزعزع على أن يترك جوار قوم حدث بعضهم بعضًا بسبه وتنادوا بقتله ، وخاض جماعة منهم في عرضه وشرفه ، وانتقصوا منه وتآمروا عليه . ولم يصحبه في عزيمة الرحيل إلا طائفة ضئيلة من أهله وعبيده .

وذاعت في حلل تغلب بعد حين ذائعة من نبأ رحيل المهلل ، فأسرع جمهور من شيوخها وكهولها إليه ليردوه عن قصده ، ويحاولوا الاعتذار عما أجرم بعضهم في التطاول عليه ، فلم يُجِدْهم ذلك ، وأصر المهلل على المسير عنهم بأهل بيته .

وفي بكرة الصباح التالى اجتمع الناس رجالا ونساء لينظروا إلى بطلهم النظرة الأخيرة ، ولم يملك المهلل وهو يلقى عليهم آخر نظراته إذ ينحدر في سيره وراء الكثبان البعيدة أن يمسح دمعة غلبته ، دمعة الأسى على فراق قوم طالبا شاركهم وشاركوه في مخاطر الحروب وفي نشوة النصر وفي كسرة الهزيمة .

بعد عامين من ذلك اليوم كان المهلهل يسير وحيداً ، لا رفيق له ولا أنيس ، بعد أن قُتل ابن أخيه الهجرس في غزوة من غزواته ، وبعد أن قُتل رفاقه القلائل واحداً بعد آخر في مصادماته العدة مع القبائل التي كان يمر بها . وهان أمره في القبائل حتى اضطر إلى تزويج ابنته الجميلة سلمى مرغماً صاغراً من غير أ كفاءها . ولم يستطع في ضعفه أن يعاقب خاطبها الجريء ، بل أجابه إلى زواجها وقلبه يتحرق ، والعجز يخرس لسانه . وأخذ يضرب في الأرض بعد ذلك وحيداً إلا من عبيدين وراحتين وفرسه المحبوب « المشهر » وسيفه ودرعه التي آلى على نفسه منذ أعوام طويلة ألا يخلعها عن جسمه .

كان المهلهل بعد عامين من تلك الحياة المضطربة يسير وحيداً في صحبة عبيده ، يريد النزول إلى جوار ماء من مياه هجر ، بعد أن جفت بقايا الأمطار في القفر الذي اتخذ موطناً . فمر في أرض ينزل بها جماعة من بكر — من بني قيس بن ثعلبة قوم الحرث بن عباد . فسمع عوف بن مالك كبير القوم بمروره وخشى أن يكون قد أقبل عليه مغيراً يطلب غرة فيستاق من الأموال والنعم ما يجد

ثم يمضى سريماً كما كان يفعل كلما مر بقبيلة من بكر . فأرسل إليه كتيبة صغيرة ترصده ، حتى إذا ما اقترب منها وقفت تعترض سبيله ، فأسرع العبدان إليه خائفين وقالوا هما يرعدان من الخوف : « هذه جماعة من بكر ! » . فنظر إليهما المهلهل كاسفا وقال كأنه يخاطب نفسه : « أين منى الأحرار ؟ » ثم صاح بهما وقد أشرع رمحہ : « تنحيا عنى لا أبأ لكما ! » .

ومضى فى سبيله والعبدان يسيران خلفه فى بطاء ، وقد انخلع قلباهما . حتى إذا ما صار عند القوم أراد أن يخترق صفهم لا يلتفت إلى يمين ولا إلى يسار ، وغمز فرسه المشهر فى جنبه فاندفع مسرعاً حتى خالط الصف ، وأوشك أن ينفذ من بينهم . فثار البكريون لهذه المرأة واختلطوا سيوفهم واندفعوا إليه فأحاطوا به من كل جانب ، ولكنهم لم يمسه . فقد كان أمر عوف بن مالك أن يعودوا به أسيراً .

ومضى المهلهل فى سبيله ورفع الرمح فأهوى به على أقرب فارس منه فطعنه فى صدره فألقاه صريماً . واضطربت الجماعة لحظة ، تمكن المهلهل فى خلالها من أن يخرج من دائرتها ، وأشرع الرمح مرة أخرى وأهوى به على فارس آخر يقصد قلبه ، فتلقى الفارس طعنته فى مجنه ، وأسرع الفرسان فالتفوا حوله مرة أخرى ، وضرب أحدهم رمح المهلهل بسيفه فقصمه وصاح قائلاً : « أسلم

نفسك قبل أن نزيل هذا الرأس الأحق عن جسدك » .
فتكبر المهلهل أن يرد على الرجل ، وأسرع كالبرق فاستل
السيف وأهوى به على رأس مخاطبه فأرداه عن فرسه .
فاستشاط الفرسان غضباً واندفعوا نحوه من كل جانب يضربونه
بسيوفهم وهو يرواغهم ويتقى ضرباتهم ما استطاع ، يتلقاها على
مجنه تارة وعلى درعه تارة أخرى ، حتى ظن القوم أنه قد أعجزهم ،
وعولوا على الفتك به فتضايحوا : « لا تبقوا على الوغد ! » .
ولكن المهلهل قاوم ودافع ، حتى كاد يأتي على آخرهم لولا
جراح أصابته نزفت منها دماؤه فأضعفته عن المقاومة ، ومال عن
سرجه خائر القوى ، ولا يزال السيف في يده يقطر من دماء
بنى بكر .

فوجد بقية الفرسان عند ذلك فرصة أمكنتهم منه ، فأحاطوا
به واستطاعوا أن يحملوه إلى عوف بن مالك وهو بين الحياة
والموت .

قضى المهلهل في أسر عوف أشهراً يرسف في قيوده ، ولا يجد
سلوة إلا في التغنى برثاء أخيه ، أو تذكر وقعاته في بنى بكر .
ولم يكن أحد يجرو أن يدنو من خيمته إلا امرأة الشيخ عوف
ابن مالك وهى من بنات خؤولته اسمها « جيبة ابنة المجلل » —
امرأة شابة جميلة حلوة العينين عذبة الحديث — عطفت على المهلهل

أشدّ العطف في محنته ، أكثر مما كانت تكبر بطولته في حروبه .
فكانت تحمل إليه كل يوم طعامه وشرابه ، وتحادثه وتروح عنه ،
وكان المهلهل يأنس إليها حيناً ويعرض عنها حيناً ، ويقبل منها
طعامها يوماً ويرفضه أياماً ، وهى مع كل ذلك دائبة على العناية به
والترفق في أمره .

وجاء يوماً رجل من أتباع عوف فدخل عليه خباءه وهو باسم
كأنه قد جاءه يبشرى ، وقرب منه فجعل يحل وكأقه ، وهو مطمئن
إلى شكره وعرفانه . ولكنه ما كاد ينتهى من إطلاق يمينه من
قيدها حتى بادره الأسير العنيف بضربة على أم رأسه كاد الرجل
يخر منها صريعاً ، فارتد مسرعاً وهو يتطوح ، حتى إذا ما صار
على باب الخيمة صاح به حانقاً : « ما الذى حملك على هذا ؟ وأى
جزاء تجازينى على فك قيدك ؟ » .

فرد المهلهل بصره عنه متكبراً ولم يجب .

فذهب الرجل عنه مسرعاً فى غيظ شديد ، وبقي المهلهل
صامتاً ينظر إلى أثر حز الجبال المتينة فى معصميه ، وفيما هو يتغنى
حزيناً يخاطب نفسه بوصف ذلك الأثر ، أقبلت عليه جنية ابنة
المجلل ، وهى تنظر نحوه نظرات موزعة بين الإنكار والترفق .

فلما صارت قريبة منه قالت فى رفق : « لم ضربت الرجل وقد
أتى بفك وكأناك ؟ » .

فنظر إليها المهلهل وألان من نظرتة ثم قال : « وما الذى حمله على فك ذلك الوثاق ولم يستأذننى قبل فكه ؟ لئن كنت أسيراً فإننى لا أزال أملك هذا القيد من أمرى » .

ثم جعل ينظر إلى معصميه ويحدث نفسه وينشد من شعره فى بكاء كليب . . .

فقلت حبيبة فى نفمة اعتذار : « لقد بعته إليك ابن عمك عوف ابن مالك وأمره أن يفك قيدك ، وما كان يحسب أن ذلك يسوؤك ، وما يقصد من ذلك إلا التودد إليك ، لعلك تأنس إليه . وقد جاءه اليوم قوم من بنى عمك فأحبوا أن يأتسوا بك .

فتجهم وجه المهلهل وعقد ما بين عينيه وقال وقدم الشرفى نظراته : « وهل كنت لابن عوف نديماً ؟ » .

فقلت المرأة ولا تزال فى نعمتها رنة الاعتذار : « لا ! ولكنهم يدعونك للمؤانسة . وهل عليك خير فى مجالسة قوم من بنى عمك ؟ » .

فأدار المهلهل وجهه عنها وقال مغمماً : « ليس المهلهل بمن يسمى إلى أحد » . ثم جلس فى ركن الخيمة ، وجعل يتغنى حزيناً بمراثيه فى أخيه .

فأرأت المرأة أن مراجعة القول لن تجديها شيئاً ، فانصرفت فى صمت وبق ، المهلهل يتغنى ناظراً إلى أثر القيود فى يده .

بعد قليل أقبل ابن عوف ومعه ضيوفه ، حتى وقفوا على باب الخيمة . وتقدم شيخ كبير منهم فقال باسمًا : « أتأذن لى يا ابن الكرام ؟ » .

فنظر المهلهل نحوه حيناً وهو لا يميزه ، وغاب لحظة فى تفكيره ثم علت وجهه ابتسامة ضعيفة مترددة ، وقال بصوت خافت : « الفند بن سهل ؟ » .

فقرب الرجل منه وقال وهو واقف إلى جانبه : « نعم الفند ابن سهل . أبيت أن تسعى إلينا فسمعينا إليك » .

فاعتدل المهلهل مرتاحاً إلى حديث الرجل ، ونادى الفند مخاطب إخوانه الواقفين دون باب الخيمة فقال : « لا بأس عليكم يا قوم ، فقد أذن لنا المهلهل » .

فدخل القوم وجلسوا فى جوانب الخيمة ، ودخل معهم عوف ابن مالك ، فانتحى جانباً وهو صامت .

وتبسط المهلهل فى حديثه مع الفند ، ثم امتد الحديث إلى سائر الجالوس ، وكأن المهلهل قد نسى ما هو فيه من أسر وضيق وذل ؛ فجعل يحدث القوم ويرحب بهم ويؤانسهم بالتحية كأنهم ضيوفه ، وكأنهم قد نزلوا عليه فى بعض رحابه .

وبعد ساعة جاءت جفان اللحم والثريد ، ووضعت السنام

مشوية مع الكبدة في صحفة جعلت بين يدي المهلهل ، وحملت الخمر فأديرت على الحاضرين في كؤوس من نحاس ، وأقبل الجميع على السمر في خيمة المهلهل كأنهم في وليمة حافلة .

هكذا أراد الضيوف ، ولم يستطع عوف بن مالك أن يرضى بمطلب طلبه منه زائروه .

وأراد المهلهل أن يمتنع عن مشاركة القوم في شرايهم براً بقسمه الذي أقسمه عند قتل أخيه . ولكن شيئاً غلبه على امتناعه فجعله يرضى بمقاسمة القوم شرايهم . أكان ذلك ليأسه من متابعة النضال ؟ أم كان لاقتناعه بأنه قد أدرك ثأر كليب ؟ أم كان لأنه لم يقدر على مقاومة إغراء رائحة الزقاق التي حرم مذاق راووقها الصافي تلك السنين العدة بعد أن كان لا يصبر عنها يوماً ؟ مهما يكن من ذلك فقد أقبل على الشرب وأنحلت منه عقدة الهم ، وعاد اللون إلى وجهه ، وابسطت أساريه ، وكسته ابتسامة وديعة ، وضرب مع الجلوس في الحديث .

وتحدر السمر وتصعد في شعاب وشجون ، وكان القوم يصفون في شوق إلى أقوال المهلهل ويستملحون قصصه ويستعذبون أشعاره ، ثم دارت الخمر في رأسه فتدفق في إنشاده وأنساب في حديثه حتى صار هو وحده متكلم القوم . ولكنه لم يلبث أن نسي موضعه وحاله . وجمل يتذكر مواقفه في بكر ، وينشد من

أشعاره مفاخرأ بقومه ، متغنياً بمن قتل من سادات بكر وشيوخ
قيس بن ثعلبة .

ثم قام في حماسة كأنما قد خيل إليه أنه واقف في صفوف تغلب
يذمرهم للحرب ويحرضهم على الاستبسال في الهجوم ، وأخذ يشير
بيديه ناظراً إلى الفضاء الفسيح الذي دون الخيمة وجعل ينشد :
شفيت النفس من أبناء بكر وحكَّتْ برَّ كهها بيني عباد
إذا ما الخيل بالأشكال جالت وفي لباتها الأسل الصواد
وثار القع بينهم وثارت لها أسد على أسد عواد
بضرب تشخص الأبصار منه وطمن مثل أفواه المزاد
فنظر إليه الجلوس ووجوا ، ثم نظروا إلى عوف بن مالك فإذا
به مربدَّ الوجه ، محرَّ العينين ، وإذا به يقبض على سيفه وينفث
من غيظه كما تنفث الحية .

وأراد أحد الضيوف أن يخفف من وقع الأمر ، فقال للمهلل
في لهجة المداعبة : « ألا تقول لنا شيئاً من غزلك يا مهلهل ؟ » .
فمضى المهلهل كأنه لم يسمع قول الرجل ، وتحولت رنة صوته
حتى صارت كأنها صيحة حرب وقال :

رب خيل لقيتها لا أبالي حيث ألقى كباتها مغوارا
إننا معشر إذا ما غضبنا ضاقت الأرض نقتنى الآثارا
إن أقننا أقامت الناس طوعا أو أردنا الحروب سرناجهارا

وعند ذلك لم يطق عوف بن مالك صبراً ؛ فنهض فجأة وصرخ قائلاً : « أيفخر العبد علينا في ديارنا ؟ » .

ثم خرج وهو يضطرب من الغيظ ، وقد وضع يده على مقبض سيفه وسار يخطو خطواً سريعاً حتى بلغ خيمته ، وسار القوم جميعاً في أثره وتركوا المهلهل قائماً وحده ينشد ويتغنى ، ويفخر بما أنزل بالبكرين من ويلات .

حاول الضيوف أن يعتذروا إلى عوف مما سببوه له من الإهانة ، وأرادوا أن يخففوا عنه وقع أشعار المهلهل . ولكنه لم يسكن ، بل استمر على اضطرابه وصخبه في فناء خيمته وهو يسير ذهاباً وجيئة في هياج .

ثم وقف فجأة وقال : « لقد كان أولى لنا لو تركناه في قيوده ، ولكن هذه الرقة التي حملتكم على مجالسته قد حرضته علينا . وهأنتم أولاء سمعتموه يتغنى بسب قومي . وحق مناة ليموتن أشنع ميتة ماتها رجل ! لا يذوقن طعاماً ولا شرباً حتى يرد زبيب ! » . وكان زبيب فحلاً قويا من الإبل لا يرد الماء إلا كل عشرة أيام .

في الليلة الثانية بعد ذلك اليوم كانت جبية ابنة المجلل تسير في الظلام خلصة وهي خائفة والهة ، حتى بلغت خيمة المهلهل ، فنظرت حولها خشية أن يراها أحد ، فلما لم تجد أحداً دخلت

مسرعة حتى جاءت إلى الأسير وجعلت تفك قيوده وتقطعها بسكين أخرجتها من طيات ثيابها .
ونظر إليها المهلهل متعجبا أول الأمر ، ثم سألها في دهشة :
« ماذا تفعلين يا أم عمرو ؟ » .

فقالت المرأة هامسة : « قم ! أسرع ! أسرع قبل أن تهلك » .
فلم يتحول المهلهل من موضعه بل سألها : « ماذا تقصدين ؟ »
قالت جيبة : « قم ! إنك لن تذوق طعاما ولا شرابا حتى يرد زيب . إنك هالك لا محالة ! هكذا حلف عوف بن مالك . قم !
أسرع ! » .

ولكن المهلهل بقى في موضعه لم يتحرك . فمضت المرأة وقبضت على ذراعه وحاولت أن ترفعه وتدفعه وهي تهمس في هلع : قم !
فجذب المهلهل نفسه بعنف وقال : « اذهبي عني ، لن أشتري حياتي بالذلة مرتين ، أأهرب حتى أجعلك فداء وأنستر من ورائك لكي تلاقى غضب زوجك الحائق عني ؟ » .

فوقفت المرأة متعجبة حيناً ، وأرادت أن تعاود الكرة عليه في الإلحاح ، فنظر المهلهل إليها واجماً وقال : « قلت لك اذهبي عني ، اذهبي قبل أن أصبح في الحى منذراً بمكانك » .
فلم تجد جيبة بداً من الذهاب وخشيت اقتضاح أمرها ، فأسرعت راجعة إلى خيمتها وهي تترجح بين الغضب والخيبة .

لم يسمح عوف بن مالك لأحد أن يذهب إلى خيمة المهلهل إلا بعد أن ورد زيب ، بعد عشر ليال . ثم ذهب إليه ليراه فإذا به قد هلك من الجوع والعطش . ولم يملك نفسه عندما وقعت عينه عليه من أن يخشع ويحزن كما يخشع الصائد وهو يرى الأسد صريعا . ووقف ينظر إلى عبديه وهما ينزعان عنه دروعه لأول مرة بعد أن بقيت على جسده سنين طويلة لم يخلعها ، وكانا كلما نزعا منها قطعة صحبتها رقعة من جلده الذي لصق بها . ولكنه عندما نظر إلى يديه ورجليه لم يجد فيهما قيذاً ولا وثاقاً قصاح بالعبدن قائلاً : « من نزع القيد والوثاق عنه ؟ لقد أردت أن أدفنه في قيوده » . فنظرا إليه حائرين ولم يجيبا .

فرفع يده بالسيف إزهما مهدداً وكاديهوى به عليهما ، فدخلت امرأته عند ذلك مسرعة ، وهي تصرخ : « لا تفعل يا أبا عمرو ! لا تفعل ! » .

فنظر الرجل إليها متعجباً وقال في غضب : « خلى سبيلي ! مالك والعبدن ! » .

فقال المرأة في هلع وهي مندفعة اندفاع اليأس : « لقد فككتها أنا ! أنا التي فككت قيوده » .

فصاح بها الرجل الخيف قائلاً : « أنت ؟ أيها الخائنة ! » . فتعلقت به المرأة باكية وقالت : « أليس ابن عمي ؟ رأيتنه » .

يموت فلم يطاوعنى قلبي أن أرى بطل تغلب يتلوى يصارع الموت
جوعاً وعطشاً ، فخلت قيوده وتضرعت إليه أن يهرب . ثم
سكتت لحظة وأجهشت بالبكاء وقالت فى نشيجها : « ولكنه أبى
وآثر الموت » .

فسكن غضب عوف قليلاً ، ثم قال فى دهشة : « لم يرض
أن يهرب ؟ » .

فقلت المرأة باكية : « لقد أبى ، وقال لا أشتري الحياة
بالدلة مرتين » .

فوقف عوف صامتاً لحظة ، ثم وضع سيفه فى قرابه ، ونظر
إلى المهلهل نظرة طويلة ، وجعل يتأمل جسمه الضعيف النحيل ،
وجلده المقطع ودرعه التى علاها الصدأ ، ثم تنفس نفساً عميقاً ،
وقال فى حزن : « أبى المهلهل إلا أن يموت كريماً ! مات
سيداً ربعة » .

ثم أشار إلى العبدى أن يترفقا بالجسد المحطم الذى يجهزانه ،
وذهب إلى قومه لينعى إليهم المهلهل ، ويستعد لإقامة المأتم لعدوه
البطل . ولم يرضن عليه ~~بدمية جسده~~ ^{بدمية جسده} منصرف من باب
خيمته الساكنة

